يوميات عربية

عبد الله مكسور

أبناء البحر

مكتبة

أبناء البحر

مكتبة
telegram @ktabpdf
telegram @ktabrwaya
جديد الكتب والروايات

تابعنا على تيليجرام اضغط هنا

تابعنا على فيسبوك اضغط هنا

مكتبة ٢٠١٩٦١

Abna'a Albahr *by* "abdualla maksour"
Copyright © 2017 by **Dar Al-souaidi publishing house & Almutawassit Books.**

المؤلف: عبد الله مكسور / عنوان الكتاب: أبناء البحر
الطبعة الأولى: ٢٠١٧.
تصميم الغلاف والإخراج الفني: الناصري

ISBN: 978-88-99687-87-8

سلسلة يشرف عليها المركز العربي للأدب الجغرافي
تصدر بالتعاون بين:

دار السويدي للنشر والتوزيع
أبو ظبي، ص.ب: 44480 / الإمارات العربية المتحدة
هاتف: 0097126447474/ فاكس: 0097126449797 / alrihla@gmail.com

منشورات المتوسط
ميلانو / إيطاليا / العنوان البريدي:
Alzaia Naviglio Pavese. 120/ 20142 Milano / Italia
العراق / بغداد / شارع المتنبي / محلة جديد حسن باشا / ص.ب 55204.
www.almutawassit.org / info@almutawassit.org

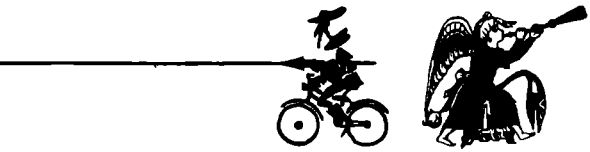

يوميات عربية

عبد الله مكسور

أبناء البحر

مكتبة 449

استهلال

هذه سلسلة جديدة من أدب اليوميات، تأتي بعد مرور عقد ونصف العقد على تأسيس جائزة ابن بطّوطة، التي شكّلت تحدّياً لإمكانات الكتّاب العرب وميولهم الأدبية، وحافزاً لكتابة أدب اليوميات، إنْ في فضاء السفر، أو في فضاء الآخر، حيث تقيم، اليوم، نخبة من الكاتبات والكتّاب العرب المهاجرين عن أوطانهم، والمَنفيين منها بفعل الاستبداد والقمع والحروب وضياع الحُرّيّات.

وقد حضّت هذه الجائزة، الأولى من نوعها في الثقافة العربية، الكتّاب العرب الجدد على استئناف مغامرة الكتابة في هذا اللون الأدبي الذي كان قد شهد ضموراً واختفاء على مدار عقود، فأنعشت الرغبة في مقاربته، وراحت اليوميات تخرج إلى النور، إنْ من خلال منشورات "المركز العربي للأدب الجغرافي - ارتياد الآفاق"، أو من خلال منصّات وناشرين هنا وهناك في دنيا العرب.

هي سلسلة، نوسّع معها من مساحة التفاعل مع أدب اليوميات استقبالاً ونشراً، بما يتعدّى النصوص الفائزة بالجائزة إلى ما هو أبعد وأوسع، نُباشر نشرها بالتعاون مع "دار المتوسّط - ميلانو"، بوصفها مشروعاً جديداً، وُلد في المغترب الأدبي العربي، ويُعبّر - في كثير من منشوراته - عن نزوع أصيل إلى الكتابة الحُرّة والتفكير الحُرّ، ويشترك مع "مشروع ارتياد الآفاق" خصوصاً في بحثه عن سُبُل جديدة ومبتكرة في بناء جسور ثقافية

بين ضفَّتَي المتوسط، وهو ما يمكّن من خدمة فكرة انفتاح الثقافة العربية على العالم وثقافاته، والتعريف بأفضل ما تُنتجه قرائح الأجيال الجديدة من الكتّاب العرب الذين لا يعدّون أنفسهم قارّة منعزلة، ولا يرون حاضراً لثقافتهم من دون التفاعل الحيّ مع الثقافات الأخرى خصوصاً في هذه البحيرة العظيمة، ولا يرون مستقبلاً زاهراً لها، ما لم تكن نتاجاتهم الأدبية والفكرية وتطلّعاتهم الثقافية جزءاً أساسياً من تطلّعات الثقافات الكبرى في البحر المتوسط.

***

شكّل أدب اليوميات عماد مشروع "ارتياد الآفاق" الذي يُعدّ، اليوم، مشروعاً فريداً من نوعه في الثقافة العربية، لكونه عَدّ أن أدب السفر والتواصل مع الآخر هو الاختبار الأهم والدليل الأسطع على انفتاح ثقافة على ثقافات أخرى. ولطالما نظرنا إلى سطور يوميات الرحّالة والمقيمين في المنافي وديار الاغتراب، بوصفها مُدوّنات، تُشكّل وثائق أدبية وتاريخية معا، وهي لوحات فنّيّة مدهشة، تكشف عن مشاعر حميمة وخلجات وجدانية فيّاضة، وخواطر وانطباعات، ترصد المرئيات، وغالباً ما تُثري القرّاء بحَدْس شاعري، وابتكار فنّيّ، وجمال في التعبير، عبر خيال يُعانق الواقع، ويُوقظ الذاكرة، فيأتي بالممتع والمدهش. مرايا تتعاكس، بلدان قريبة وبعيدة، أماكن جديدة وزوايا لم تُستكشَف، ولا يمكن استكشافها إلا بالأدب، وقد استنفد التسجيل والتصوير المباشر غايتهما. ووُلد في العصور الحديثة أدب يوميات، يجعل من أصحابه شعراء وفنّانين أكثر منهم مُدوّني وقائع. اكتشاف المكان واكتشاف الذات سعياً وراء فَهْم حقيقيّ لها. هكذا تنبثق الرؤى من معاشرة الناس والمُدُن والأنهار والجبال، وترتسم في صياغات جديدة للوجدان والنظر والتعبير عبر نصوص حية عابرة للزمان، كما هي عابرة للمكان.

نبّهنا مراراً خلال سنوات عملنا في هذا اللون الأدبي إلى أن أحد أهداف ما حقّقنا ونشرناه من كُتُب اليوميات والرحلات العربية إلى العالم، هو الكشف عن طبيعة الوعي بالآخر الذي تشكَّل عن طريق السفر والإقامة في ظهراني الآخر، والأفكار التي تسرّبت عبر سطور الكتاب، والانتباهات التي ميَّزت نظرتهم إلى الدول والناس والأفكار. فأدب اليوميات، على هذا الصعيد، يُشكِّل ثروةً معرفيَّةً كبيرةً، ومخزناً للقصص والظواهر والأفكار، فضلاً عن كونه مادّة سرديّة مُشوِّقة، تحتوي على الطريف والغريب والمُدهش ممّا التقطتْه عيون تتجوّل، وأنفسٌ تنفعل بما ترى، ووعي يلمُّ بالأشياء، ويُحلِّلها، ويراقب الظواهرَ، ويتفكَّرُ بها.

محمّد أحمد السويدي

تتناول هذه السيرةُ هنا فترتين: الأولى تمتدُّ بين آذار ونيسان من عام ٢٠٠٣ في معتقل بوكا بالعراق، والفترة الواقعة بين الأوّل من أغسطس والسادس من أكتوبر لعام ٢٠١٤.

الكاتب

طائرة إلى إسطنبول

كثيرةٌ هي الحدود التي عبرتُها، فلماذا أتوقَّفُ كثيراً أمام هذا الوداع، إنَّهُ الأقسى، قطعاً إنَّهُ الذي سيبقى في مُخيِّلتي، عيوني تتسمَّرُ على داماس الصغيرة، وهي تنتقلُ خطوةً بعدَ أُخرى على يدَيِّ أمِّها، أنصبُ حبالاً ترافقُها، هي التي لا تحملُ منِّي أيَّ ذاكرةٍ، تقيها بردَ المُدُنِ القريبةِ والبعيدة، كانت الخطوط الملكية الأردنية تنتظرُ المسافرين عصرَ التاسع والعشرين من آب لعام ٢٠١٤، لتقلّهُم نحو العاصمةِ عمَّان، في رحلةٍ تستمرُّ ثلاث ساعاتٍ ونصف تقريباً، في تلك الرحلة، انطلقَت داماس فوق الغيمِ مع أمِّها، كنتُ أرجو السماءَ، كي يتوقَّفَ الزمنُ عن اللحظةِ التي همستُ في أُذُنِها مُقسماً أنَّنا سنلتقي بعد قليل، هذا القليلُ استمرَّ عاماً وبضعة أشهر.

داماس هي ابنتي الفلسطينية، لأبٍ سوريّ وأمٍّ فلسطينية، قَدَرُها أنَّها وُلِدَت بعد ثورَتين، فوقَفَت على ضفَّتَي وطنَين، نَزَعا منها الانتماء، فكانت الضحيَّةَ بلا أوراقٍ ثبوتية حتَّى استطعنا وفقاً لسلطةِ الاحتلال الإسرائيلي أن نستخرجَ وثيقةً، تحملُ ختمَ السلطةِ الفلسطينية لفتاةٍ، رَفَض حكَّامُ دمشقَ أن يمنحوها جنسيَّةَ والِدِها، إنَّها سُخريَةُ القدَر حين لفظتْنا المُدُن العربية نحو المنفى، وكأنَّها حبلتْ بنا سفاحاً، وأنجبتْنا على قارعةِ الطريق. لم يكن أمامي خيارٌ سوى هذا المسار الذي سأرسمُهُ بعد قليل، تلكَ الطريقُ التي حرمتْني من حكاياتٍ، كنتُ أجهِّزُها لابنتي حينما تكبُر عن اعتقالي وسجني وتعذيبي، تلكَ الطريقُ حمَّلتْني وجعَ البدايات والنهايات معاً، لأكون واحداً

من الذين سيحتفظون بذاكرةٍ، تسرَّبَت لنا بين الأرض وطائراتِ الظالمين، الطائرةُ تبتعدُ، وتصغرُ المرئياتُ كلّها معها، بينما كنتُ أُكابرُ دمعاً جالساً على كرسيٍّ حديديّ في أحدِ ممرَّات المطار مُنتَظِراً رحلتي القادمةُ بعد ساعتين إلى إسطنبول.

في المطارات الغربيةِ، أُحاوِلُ أن أكون حيادياً في كلِّ شيء، لا تعنيني مشاهدُ الدموع المُنهالَةِ على الوجنات الباردة، لا تعنيني إشارات الأصابع بالإصرار على التواصل عند الوصول، لا تعنيني تلك التفاصيل الموجودة كلها الآن هناك، فالمكان رغم رطوبتِه وحرارَتِه العاليةِ إلَّا أنَّ صقيعَهُ يكادُ يقتُل الدقائقَ القادمة خلال ساعتين ونصف، حاولتُ الانشغال بهاتفي، لكنَّهُ ما لبِثَ أن فرَغَ من الشحن، حتَّى البطاريَّة لم تُسعفني وتقتل هذا البرود كلَّه من حولي، كثيرةٌ هي الأفكار التي تتقاذفني بين طائرتين، أنا الذي لم أستطِع أن أبقى مع ابنتي مرافقاً إيَّاها إلى فلسطين.. وإلَّا فماذا يعني الاحتلال!

أشطرُ نفسي إلى قسمَين، وأُخاطِب أنا الآخر، أُقدِّم لهُ اعتذارات السنوات الماضية مرَّةً واحدة، قد نعيشُ دهراً دون أن نلتفِتَ إلى ذلك الساكن في داخلنا، هوَ صورةٌ طبق الأصل عنَّا، وربَّما هو النسخةُ المُزوَّرةُ عن بقايانا التي ضاعت بين زواريب المُدُن العربية، كيفَ لي أن أُقنِعَهُ أنَّ ما حدَثَ كلّه كان خارجاً عن إرادتي؟! كيفَ لي أن أُقنِعَهُ أنَّ ما آمَنَ بهِ كلّه كان كذباً، مُسلَّماتِه كلّها كانت زوراً، لم تُقارب الحقيقة يوماً؟! الحقيقةُ الوحيدةُ التي سيجدُها أنَّني وهوَ دون آخرين نجلسُ فوقَ بعضِنا على كرسيٍّ واحد في مطارٍ، يعجُّ بالراحلين والقادمين والعابرين.

أتلعثمُ بالكلام، وتخونني الحروف التي ترفُضُ أن تجتمعَ على لساني في سياق، بينما ينهضُ آخري، ليُواجِهَني بكلِّ ما آمَن، فأضحك. لا مجالَ

للكلام المُختَصَر هنا، نحن على مقربةٍ من نهايةِ الطريق، سنفترقُ إن بقيتَ هكذا، يا آخري، فهل تقبلُ اعتذاري واستلابي أمام هذا الواقع؟ هل تقبلُ أنيِّ لم أكن إلَّا جسداً بلا روح؟ هل تقبلُ أن تجلسَ بهدوءِ ناسِكٍ، لتستمعَ للحكايةِ التي لم تعرِفها، وترضى أن تكونَ شاهداً على ما سيأتي؟ راقِب انكساراتِك بصمت، بوجعِ النهايات الحتمية دون انتظارِ العاصفة الرملية التي ستأتي بالفرحِ حين تنتهي، تابِع تفاصيل رحلتي التي لم تعلم عنها شيئاً، واكتفِ أنت خلال ذلك بالشوق لداماس وأمِّها ولجنين، لم ترَهُ بعد، ذلكَ الجنين الذي قالَت الطبيبةُ إنَّهُ ذَكَر، أَمِّلْ نفسَكَ أنَّكَ ستراهُ بعد حين، فالطائرةُ ابتعدَتْ كثيراً، ربمَّا خرجَتْ من الأجواء المحيطة، ودخلَتْ في أجواء آخرين أيضاً، وإلَّا ماذا تعني سايكس بيكو التي ترفُضُها؟

صوتٌ يخترِقُ صمتي وذهول آخري، ليُعلِن عن ضرورةِ التحرُّكِ نحو بوّابات المغادرَة، فالطائرةُ على أهبةِ الاستعداد لنقل الراحلين، أنهضُ وأهمسُ في أُذُنِ آخري، بعد قليل، سترى المدينةَ من الأعلى، كما يراها الطيَّارُ الذي يُلقي بحمولةِ الموت على مُدُننا هناك.

كثيرةٌ هي المطارات التي عبرتُها، أذكُر أنَّ أحداً لم يُمسك بي مُتلَبِّساً بآخَري، كما هذه المرَّة، هذا التلبُّسُ كشفَني، فأردوهُ قتيلاً، كان يحمِلُ صفاتي الجيِّدة، يُخبِّئها عن عيون الآخرين، بينما كنتُ أتلصَّص عليه، فأنا لا أجيد الحديثَ معه، لعلَّني سأكتُبُ لهُ الحكايةَ؛ ليقرأها بعيداً عن عيون المُراقبين، تركتُهُ واقفاً على أبواب المطارات، يُراقِبُ فضول الآخرين ونظراتهم.

آخري قالَ لي مرَّةً إنَّنا حين نتحدّث أو نكتب عن آخرين، فإننا نقول حقيقتهم التي نعرفها، حقيقتهم التي لا نريد لهم أن يعرفوها بعمليات التجميل المناسبة، كنتُ أودُّ أن تكون الحقائق كلّها كعينَي امرأة، طلبتُ منها أن تحدّثني عن الله العظيم، فبدأتْ بلمعة العشق، وانتهتْ بالبكاء..

لا تعنيني هذه التفاصيل كلّها، وأنا أتّجهُ عبر ممرٍّ حديديّ إلى باب الطائرة، أجلسُ في مقعدي، وكأني أرمي بحمولتي الزائدة، صوت المُضيفة يعلنِ إجراءات السلامة، بينما كنتُ أبحثُ في حقيبتي عن دفتري القديم، وأبدأ الكتابة، كنتُ أريدُ أن أغادر المكان تاركاً كلّ ما بجعبتي من الذاكرة، الذاكرةُ لا تموتُ بالأسفار، إنَّها مَشاهد مصفوفة، تُرجِعنا دوماً نحو المربَّع الأوّل، لنكتشفَ أننا كنَّا نعيش التوقيت القديم بمكانٍ جديد، هذا العام مرَّ سريعاً، في كلّ عامٍ، كنتُ أقول لن يأتي أسوأ من هذا العام، ربّما كان عليَّ النظر إلى الأشياء الإيجابية التي حدَثتْ، هل هناك إيجابيّ في حياتنا؟ دوماً أحاول الاقتراب من الله، كي تحدُث الإيجابيةُ في حياتي، مراراً ابتعدتُ عن كلّ ما يُثيرُه ضدّي، سأكون صريحاً أكثر، لقد مارستُ العادة السّرّيَّة أكثر من مرَّة، هل العادة السّريَّةُ تُغضِبُ الله؟ منذ أن وصلتُ إلى هذه المدينةِ سارَ كلُّ شيء بانتظام، أو بكثيرٍ من الحمولة الزائدةِ من الأمل بعامٍ جديدٍ، أفضلُ سبع سنواتٍ، مرَّت على دخولي المدينة التي لم يكن يربطني بها حبلٌ سرّيٌّ بمشيمةٍ، تُحيطُني وتُوصلني بها، ظللتُ معها كعاشقٍ يتفنَّنُ باصطناع الحياء، لم يستوقفني أحد، بل استوقفتْني هذه المدينةُ التي تحمِل اسمَيْن! وقد منحتُها اسماً ثالثاً خاصّاً بي، لا أحد يعرِفُهُ سواي، هل تورّطتُ بحبِّها؟ لا أعتقد، فاسمها الذي قلَّدتُها إيّاه على ضفَّةِ بحيرتها كان في رأس السنة الثالثة لحضوري، كنتُ وحيداً ككلّ عام، كما أنا الآن أيضاً!!

صوتُ محرّكات الطائرةِ يعلو، ومعها كان خطّي يتسارعُ في وضع العنوان الجديد أعلى الورقة البيضاء، لا شيء مُهمّ، هكذا همستُ لنفسي قبل أن أبدأ الكتابة، إنَّها كلماتٌ من الذاكرةِ أيضاً لقتلِ الوقت، الذاكرةُ تصلُحُ لقتل الوقت أيضاً، الذاكرةُ تقتلُ كلَّ شيء، ولا شيء يقتلُها، هكذا همستُ لنفسي شارعاً بالكتابةِ، والطائرةُ تنتقلُ من غيمةٍ إلى أخرى.

ذلك اليوم في أمّ قصر

الرابع عشر من نيسان ٢٠٠٣

الصباح الأوّل من العام الأوّل لسقوط بغداد، أفيق مرعوباً مفزوعاً من نومي على صوت جنود يصرخون من كلّ جانب، لقد حان وقت تسليم الطعام، أقفُ في الطابور الطويل، لأستلِمَ كيساً بُنِّيّاً، فيهِ بعض المأكولات الجاهزة والبسكويت، إنها وجبتي الأولى منذُ أيّام، تحديداً منذُ أن وقعتُ في الأسر بعدَ معركةٍ، لم يُشارِك بها إلا نحن، أجولُ في وجوهِ الحاضرين، وكأنّي أغرقُ في بحرٍ بحثاً عن ملامحَ لمقاتلين، أعرفُهُم، ولكن، لا أحد، إنَّهُ الصباح الأوّل من العام الأوّل لاحتلال بغداد، والمقاتلون قد خلعوا ثيابهُم، وتفرَّجوا على سقوط المدينة حيّاً حيّاً، أجلس منزوياً منفرداً بذاتي معزولاً عن العراقيين كلهم الذين حاول بعضهم أن يتجاذب معي أطراف الحديث، خاصّة بعد أن علموا أني سوري، وشاهدوا آثار التعذيب ظاهرة للعيان على جسدي، حاولتُ اختصار طُرُقِ الحديث بحثاً عن إجاباتٍ، تردُّ السائل، كي لا يُقحِمَ نفسَهُ أكثر، يمرّ اليوم الأوّل لوجودي بينهم سريعاً، ولا أحداث تُذكَر سوى صرخات ذلك الفتى الذي لا يتجاوز عمره العاشرة، حيثُ حاول أحدهم بعد أن استقرّ الجميع في خانة النوم أن يُعاشره، ويفعل معه اللواط، يفيق غالبية مَن في تلك الخيمة على صرخات الطفل الذي لم يبلغ الحلم بعد، بعضهم استنكر المشهد، وبعضهم الآخر لم يعلّق، وربمّا بقي الصمت هو الغالب في الأحيان كلها، أضطجع في مكاني، أتقلّب محاولاً فَهْم ما يحدث، وأيّة دماء باردة تلك التي تسري في أجساد مَن حولي، بلادهم ضاعت، وهم يضيعون، والموت يحاصرهم من كل جانب، ومع ذلك يمارسون اللواط!

يوم جديد في الناصرية، المكان الذي كنتُ فيه، عرفتُ ذلك عندما سألني أحدهم كيف وصلت إلى الناصرية، فأدركتُ لفوري أني في مكان كان يُسمّى قاعدة الإمام عليّ الجوّيّة. يوم جديد يمرّ متثاقلاً بطيئاً بكل شيء، لا تُحرّكه صلواتي ودعواتي ودموعي التي كنتُ أذرفها حين ينام الجميع.

في عصرِ اليوم الثاني حينَ قاربَتِ الشمسُ على الأفول، جاءَ صوتُ المُكبِّر، يجمعُ المعتقلين من أرجاء الخيامِ المنتشرة في الناصرية، وليبدأ "دين" المترجِمُ الناطقُ بالعربية قراءةَ أرقامٍ معلَّقةٍ بأوراقٍ صغيرةٍ، على رقبةِ كلِّ مُعتَقَل، كان يُفتِّشُ عن صاحبِ الرَّقْم، ويركلهُ خارجَ السلكِ الشائك، حيثُ اصطفّت باصاتٌ كبيرةٌ، تنتظرُ المهزومين والراحلين، مضى جُلُّهُم، ولم يبقَ إلا عشرين رجلاً، أو ما ينقص عن ذلك بقليل، كانوا من المعطوبين الذين لو تمّ نقلهم إلى مكان غير بيوتهم، لماتوا في الطريق، ساعة أو أكثر بعد رحيل الحافلات، ويمضي هؤلاء، وأبقى مع خمسة آخرين، لم يغادروا، بل بقوا معي، وعلى ما يبدو، سيرافقوني، كما أخبرنا "دين" إلى غوانتانامو.

أعود إلى مكاني القديم الذي بتُّ أألفه بعد أن رحل العراقيون، أجلس فيه متذكّراً كل مَن مرّ في حياتي، ها هي وجوههم تُطالعني في الرمال، وتشدّ من أزري، وتعيد شحن همّتي ويقيني بأني لستُ على خطأ، يمرّ يوم آخر، وتسقط ورقة يوم بعده، ويأتي "دين" من جديد، ليدخل إلى الخيمة، ويجلس معي حيث أجلس، ويبدأ حديثاً وديّاً، يحاول من خلاله أن يجرّني إلى ما يحبّ:

- أتشرب الخمر؟..

- لم أشربه أبداً ، ولكن، دائماً هناك المرّة الأولى!

- هل مارستَ الجنس؟ ..

- قطعاً ، ولكن، دائماً هناك المرّة الأولى!

أحاول دائماً أن أجعل إجاباتي مفتوحة على الاحتمالات كلها، لعلّي أنجو من براثِن شباكِهِ التي ينصُبُها دون كللٍ من جلسات التحقيق منذ أيّام.

- من الممكن أن نوفّر لك ذلك كله وأكثر، لو تعاونتَ معنا، وقلتَ لي كم عسكرياً قتلتَ، وتدلّني على مكان السلاح النووي ومخبأ صدّام حسين؟ ...

أضحك مقهقهاً حتّى أقلب على ظهري، فيمتعض هو، ويهبّ واقفاً، ليركلني بقَدَمَه على وجهي، ويبصق عليّ قائلاً:

- أحمق ... لا تعرف مصلحتكَ ... ولا تريد أن تعيش حياتكَ.

بعدَ أن مضى "دين"، مرَّ الليل هادئاً صامتاً، كبركان يتهيّأ للانفجار في أيّ لحظة، ليأتي في ثلثه الأخير زوّار جدد، وحافلات جدد. لم يكن يعنيني شيء سوى مَن وقعَ الاختيارُ عليه من القادمين، ليكونَ مكانَ ما كنتُ في الداخل، هناك ضمن الغرفةِ الصغيرة، ليفعلوا بهِ ما فعلوا بي. أشفَقتُ على الجميع، وأنا أسمعُ قصصاً وروايات لحربٍ، لم يكونوا طرفاً فيها، فهي حربُ الكافر والظالم، وهم اختاروا أن يقفوا على الحياد، أبتسم في داخلي المهزوم، فكيف لإنسان أن يتحدّث حديثاً، يدرك تماماً أنه كاذب فيه، ومع ذلك، يُسهب في الحديث، ويُعيد الرواية كلّ مرّة بطريقة مختلفة. مكتبة

يجلسون فور وصولهم لِلَعِبِ المحيبس، وهي لعبة عراقية، يعرفها القاصي والداني، الصغير والكبير، يضحكون ويمرحون ويقهقهون، أغضُّ بصري عنهم، وأشيح وجهي إلى ذلك العسكري الأسود الذي قبع في غرفة خشبية خارج الأسلاك من الطرف المقابل للباحة الكبيرة، ومعه رشّاش

ومُستقبل، ونحنُ مقابله، لا نملكُ سوى مأساة وماض وهزيمة وصفَّين لِلَعِب المحيبس!

لأوّل مرّة منذ اعتقالي، أنام دون أحلام، ودون رغبة في انتظار ما هو آت، في الصباح، أستلمُ وجبتي سريعاً، وأجلسُ منفرداً في زاويةٍ، أُراقِب الآخرين حين داهَمَ "دين" المكان يحملُ في جعبتِهِ أرقاماً جديدة، لم آبَه به مطلقاً، فاقترب منّي، وركلني إلى الخارج، فأمشي خطواتٍ إلى الحافلة، ليستوقفني ضابطٌ صارخاً لـ "دين"، كي يتأكّد بشأني، فيهزُّ الأخير برأسِه، بينما اكتفى الضابطُ بالنظر مباشرةً إلى عينيَّ، وكأنَّهُ يقول لي:

اذهبْ، فهناك ما ينتظرُكَ!

ساعات كثيرة والقيودُ البلاستيكيَّةُ صارَت جزءاً من يديَّ، إلى أن توقَّفَت الحافلة أخيراً عند بوّابة مدينة صغيرة حديثة العهد على ما يبدو، مكتوب على لافتة كبيرة أمام بوّابتها: مرحباً بكم في معتقل بوكا بأمّ قصر، وإلى جانِبِها، بقايا حائط صغير، مكتوب عليه: عاش صدّام حسين صقر العرب!

إذاً، هي أمّ قصر ..

اسم سيجعلني جزءاً منه، وسأجعله جزءاً من ذاكرتي وكياني ..

أمّ قصر ...

مدينة الصمود والتصدّي التي عجز الأمريكيون عن اقتحامها، واندحروا على أبوابها، كما كان يقول الصّحّاف، مدينة تقعُ بين وطنَين، وتتّخذ من الرمال وشاحاً وعباءة وغطاء لكل شيء، غطاء لكل الجرائم التي تحدث بداخلها، غطاء لتلك الانتهاكات الخطيرة كلها التي تمثّل

وصمة عار على جبين الإنسانية التي آخر همّها مَن أتى بهم القَدَر إلى هذا المكان.

ستّون كيلومتراً أو أكثر إلى الجنوب من البصرة، على تخوم الحدود الكويتية، لا سبب واضح لتسميتها بذاك الاسم، أو بالأصحّ، لا يهمّني أصل تلك التسمية، بقَدْر ما يهمّني أن أُدرك حقيقة واحدة هي أني أصبحتُ فيها، يصطفّ كل مَن أتى في تلك الحافلات وغيرها على تخوم أمّ قصر الداخلية، على رمالها، جلسنا مسلّطة علينا أنواع الأسلحة والعيون كلها، كنّا مئات، وربّما نتجاوز الألف بقليل، وكل واحد بما فينا الجنود الأمريكيون له قصّة، لم تُروَ بعد، قصّة مختلفة عن وصوله إلى هنا.

أمّ قصر والوقت بين العصر والمغرب، كما كنتُ أنا بين مرحلتَين كبيرتَين، كلّ واحدة تقول للأخرى: أنا أقسى منك. يمرّ الوقت عصيباً قاسياً حين قارَبَ الليلُ على الانتصاف، حيثُ يتقدّم من الجميع ضبّاط وجنود، يأمرونا بالوقوف والمشي في صفّ واحد متتابعين إلى الداخل البعيد وسط حراسة مشدّدة ومركّزة، نقفُ خلف خيمة كبيرة، تهدر منها أصوات مكيّفات، تقتل الحَرَّ الذي سيطر على تلك الصحراء، يبدأ الجنود بإدخالنا عشرة تلو عشرة، حتّى جاءَ دوري مع آخرين، طاولات متقاربة، عليها أجهزة حاسوب كثيرة، وجنديّات يحملنَ ملامح آسيوية، يعملنَ بدأب خلفها، ولأوّل مرّة، أرى ضابطاً عربياً، يضع علما عربيا فوق جيب بدلته الأيسر، أتنهّد في داخلي، لأقول:

العرب أيضاً شاركوا في هذه الحرب، ينهرني ذلك العربي بقوّة، ويدفعني بقوّة قائلاً:

- أتيتَ للدفاع عن صدّام حسين ...

أتجاهلُهُ ونظراته القاسية المصوّبة نحوي، عندما تطلب منّي تلك الفتاة الآسيوية الوقوف في مكان محدّد لالتقاط صورة لي من الجهات كلها، لتضعَ بعد ذلكَ أسوارةً بلاستيكيَّةً في يدي، ومن لحظتِها، صار اسمي، المعتقل ١٠٦٣٨٤.

أخرج من الباب الآخر للخيمة، لأرى مَن سبقني وجلس، أهمّ بأخذ مكاني وراءهم عندما استوقفني ضابط أمريكي معه مَن يتحدّث العربية ... يسألني بعد أن ينظر إلى رَقْمي في يدي اليُمنى:

- ما رأيكَ بما حدث في العراق؟

- شيء عظيم ...

أقولها متحسّراً على كل شيء عظيم كان، أقولها متحسّراً، لأني لا أستطيع الإفصاح عن رفضي لكل ما حدث ويحدث، على مرأى ومَسمع الجميع، أواسي نفسي، وأقول في خاطري: دَارِهِمْ ما دمتَ في دَارِهِمْ.

أحاول أن أشتّت بصري كيفما كان، وذلك الضابط لا يترك لي مجالاً، فنظراته تلاحقني وكأنه يقول لي، أنتَ كاذب، ولكَ ألف قصّة، سترويها لنا، يُجلِسُني الضابط بقوّة على ركبتَيّ اللتَين انغرستا في رمال أمّ قصر، ويتهامس مع ذلك الذي يتحدّث العربية، ثمّ ينظر لي من جديد، وصمت رهيب يُخيّم عليّ، لحظاتٌ قليلة، ويأتي خمسة جنود وَضعوا القيودَ في يديَّ، وحشروا رأسي بكيسٍ أسود، واصطحبوني بعنفٍ إلى مكانٍ، ليسَ بقريب، ثلاثمائة مترٍ أو أكثر ومَن حولي يُشهِرون أسلحَتَهم، المكان محاط بكلّ أنواع الأعلام والجنسيات

والمدرّعات والخيام والعسكر، نزعوا الكيسَ عن رأسي، فرُحتُ أحاول أن ألتفتَ يميناً أو يساراً، ليضربني عسكريٌّ يقفُ خلفي بمؤخّرة بندقيّته الغليظة، فأسقط أرضاً، وأُكمل الطريق، وهم يسحبوني على الرمال سحباً ، ملقياً على ظهري في مكان واسع، فيه بعض الخيام فقط وأشخاصٌ قليلون، ذلك المكان الجنود فيه مختلفون عن كلّ ما رأيتُ، فهم أكثر قسوة وعنفاً وخشونة.

يرموني ويذهبون ليأتي غيرهم لاستلامي وحراستي، وتمضي ساعة أو أكثر، والصمت يمزّق الصمت، ويمزّقني معه، حركات غريبة، وعسكري يقترب منّي، ليضع الكيس في رأسي، ويسحبني على الأرض، كما أتيتُ، الأضواءُ المحيطة بي تضعف، لدرجة كبيرة، فأدرك أني أصبحتُ في مكان مغلق، لحظات قليلة، ويأتي إلى مسمعي صوت أنثى، تتحدّث العربية بطلاقة كبيرة، لتقول لي:

- أنتَ عبد الله .....

ويبدأ مشوار التحقيق الطويل ... يعودون معي إلى بدايتي وطفولتي وجامعتي ومدينتي، يسألون عن كل شيء ... عن الجوامع والمدارس والمعلّمين وأصدقائي وحبيباتي التي عرفتُ، وهل مارستُ الجنس؟ أم لا؟ وهل أشرب الخمر؟ أم لا؟ هل أدخّن؟...و...و...و..و....

وماذا أتى بي إلى العراق؟ ..

طالب أدرس هنا ..

تصرخ تلك المرأة بجنون ... بكلمات نابية خارجة عن المألوف، لم أسمعها من امرأة في حياتي، تقترب منّي، وتنزع عنّي ذلك الكيس، وتبدأ ضربي بقوّة على رأسي بحذائها العسكري، ولا أستطيع الردّ، أفتح

عينَيّ، فأراهم يجلسون على كراسي، أُعدَّتْ مسبقاً لهم، وأنا أمامهم مُلقى على الرمال، كانوا أربعةً، خامسهُم امرأة، وأنا السادس، ولا سابعَ لنا في المكان، يقوم اثنان منهم: الأوّل أبيض اللون، والثاني أسود كظلام هذا الليل، يبدؤون خلع ملابسي، وأنا أصيح، ولا يستمعون إلى صراخي، يُطلقون كلمات نابية تجاهي وتجاه العرب، ولا أستطيع الردّ، والنار تأكل دورتي الدموية.

أقف من جديد عارياً بكلِّ ما للكلمةِ من معنى، ويعودون من جديد إلى أسئلتهم، وأعود معهم إلى مراوغتي، تنهض المرأة من مكانها، وتعود لضربي بلا هوادة، ثمّ يسيطر صمت رهيب، يقطعه ضابط صامت منذ البدء، ليقول لي:

بإمكانكَ أن تريحَ نفسكَ من هذا كله؟ ... قل الحقيقة ...

... Say the truth

الحقيقة .. أيّ حقيقة يريد؟ .. أأقول له إنَّا هُزمنا، وهو انتصر!

ينهض من جديد اللونان المختلفان، ويقتربا منّي، ليتمازجا بكل تناقضهما، وينهالا ضرباً عليّ بكل عصبية وكره وحقد.

أصرخ في وجه اللون الأبيض، وأقول له: أنتُم غزاة .. أنتُم محتلّون، كلماتي امتزجت مع الدماء الخارجةِ من لثَّتي، يشتمني، فأشتمهُ، وكأنيِّ أحسستُ بالنهاية، وأمام إحساسي راحَ اللون الأسود يفقد توازنه الداخلي، ويضربني بقبضة يده بحركة مباغتة على وجهي من جهته اليسرى، فيطير أحد أضراسي من شدّة الضربة وقوّتها، يسيل الدم من فمي على وجهي وجسدي، ولا يحرّكهم ذلك، أبصق عليهم جميعاً، عندها يعيد اللون الأبيض الحركة نفسها، وكأنه يُثبت أن

نقيضه ليس بأقوى منه، ضربة مركّزة على المكان ذاته، ليرحل ضرس جديد بجانب الذي طار منذ قليل، فيُغمى عليّ لحظات، ليعيدوني من غيبوبتي بقليل من الماء المثلّج.

يشير أحدهم بإخراجي من ذلك المكان .. فيأتي عسكري جديد، ليضع الكيس في رأسي، ويضربني على ظهري، ويُخرجني من أمامهم عارياً، كما كنتُ، والألم قد تمكّن منّي.

الوقت قبل الفجر بقليل، وربّما بما يقارب الساعتين، والألم والجوع والعطش والقلق والتعب والخوف يسيطرون عليّ من كل اتّجاه، يرميني ذلك العسكري على الرمال، ويتركني مقيّداً، أحاول أن أنام، فيلاحظ عسكريّ ارتخائي، فيقترب منّي، ليسكب ماء مثلّجاً على رأسي المغطّى بكيس، فأفزّ، كما لو لدغتْني عقرب، يكرّر هذا التصرّف كلّما لاحظ ارتخائي بمعدّل مرّة أو مرّتين كل خمس دقائق.

أفقد الأمل في النوم، فأتجهّز، وأشدّ ظهري، لكي لا يقترب بالماء، لحظات قليلة، ويرفع الكيس عن رأسي، ويجرّني عسكري، يلبس زيّاً مُختلِفاً عن الآخرين، يجرّني بعنف، وأمضي معه دون إرادة منّي متثاقلاً متعباً، ألمح بعض الشبّان المَرميين كحالتي، تتوقّف عيناي على إصبع ذلك الشابّ الذي يشير وجهه بالطيبة والسماحة، إصبعه رغم القيد تشير إلى السماء، وكأنها تقول لي .. إن الله معكَ، وهو حسبكَ ...

أبتسم رغم الدماء الجافة على وجهي وفمي، وذلك العسكري يقودني، ثمّ يدخلني إلى حلبة صغيرة مفصولة عمّا يحيط بها ببعض الأكياس المعلّقة، والليل قد سيطر على كل شيء والفجر متأهّب للظهور، العسكريُّ أكبرُ منّي بثلاث أو أربعِ سنين، ينهال ضرباً على بطني وظهري ورأسي ويدي

ورجلي حتّى أكاد أجزم أنه لم تبقَ خلية في جسدي إلا ولامستْها يداه، يسحبني جيئة وذهاباً في تلك الحلبة، يدوس على ظهري وبطني بحذائه العسكري، يحضر خشبة كبيرة، يحاول إدخالها في شرجي، فتسيل الدماء من كل جانب، وأصيح من أعماقي.

يرفعني ويرميني أرضاً، يكرّر هذه الحركة أكثر من مرّة، ثمّ يشعل سيجارة، ويبطحني أرضاً على بطني، ويطلب منّي رفع يدي، فلا أستطيع رفعها أبداً، يضربني، فأرفعها بما يقارب السبعة سنتيمترات، فيضع السيجارة المشتعلة تحت يدي، وكأنه يقول لي لو أنزلتَ يدكَ، لاحترقتَ!

فهل كان ينقصني حرائق ...

تنتهي السيجارة، فيشعل غيرها، وثالثة ورابعة وخامسة، وهو جاثم على ظهري، لا يحرّكه الحَرّ الشديد الذي بدأ يهبط مع هبوط عزيمتي، وهبوط رغبتي في هذه الحياة ..

يعود ليضغط على رقبتي كَمَن يريد أن يخنقني، ثمّ قبل أن تخرج الروح، يُفلتُني، فأتلوّى كعصفور ذُبح، فبدأ ينتفض، يكرّر هذا المشهد أكثر من مرّة، وعندما تعب، أحضر حبلاً، فشدّ يدَيّ من خلاف أمام وجهي، فكانت كلّ واحدة تسير باتجاه، ورجلي كانت على ذات الحال، فبتّ مصلوباً على رمال أمّ قصر، ليأتي بعد ذلكَ بصندوقٍ خشبيّ كبير، وضعَهُ على ظهري، وقبلَ أن يُغادِرَ سدَّدَ ضربةً قاتلةً إلى عضوي الذَّكَريّ، فأغيب عن الوعي، ولا أشعر بشيء، أضع خدّي المُدمّى على أرض الصحراء الحامية، كأني أشتمّ رائحة أمّي وكل خلية في جسدي تصرخ من شدّة الألم، وجعي يغلب النعاس، فلا أهتدي إلى النوم أبداً، أحاول أن أغمض عينيّ، وأستسلم لاسترخاء كبير، ولكن، عبثاً، فلا طريق إلى النوم أبداً، أبحث عن طريقة لتخفيف ألمي وإزالة الصداع العظيم، ولا سبيل.

كانت الشمس قد أشرقتْ، وبدأتْ أشعّتها تخترق جسدي العاري، وتحيل الرمال الذهبية إلى نار ملتهبة تحرقني، تلذعني، وأشعر بها، ترفعني في ذلك التفرّد الذي لم أكن أحلم بحياتي ...

أموت عطشاً، ويكاد حلقي يتقرّح حاجة للماء ... أصيح Water: يا كلاب.

Water يا أوغاد ... Water يا سَفَلَة ...

لحظات قليلة، ويقترب منّي عسكري، ومعه علبة كبيرة من الماء العذب، ليقف أمامي، ويسكبه قربي على الرمال القاحلة، أصيح فيه، فيضحك، أرخي نفسي من توتّري، وألقي بوجهي بعصبية على الأرض، فيقترب واضعاً قَدَمَهُ على رقبتي.

تمرّ ساعة أو أكثر، والشمس تلتهب، ومعها تشتعل الرمال، وجسدي العاري الذي حفرتْ فيه حبّاتُ الرمال أدقَّ تفاصيل، لتُشكّل فيه خريطة مشوّهة عن رجل، كان أنا قبلَ أن يأتي جندي، ليفكّ الحبل من يدي اليُسرى وقَدَمي الأيمن، ويأتي بيدي اليُسرى، ليضمّها إلى أختها اليُمنى، وهي مشدودة إلى الحبل بقيد حديديّ، وبعد ذلك، يفكّها من الحبل، وكذلك يفعل بقَدَمي اليُمنى ...

يحاول أن يشدّني، لأقف، ثمّ أقع أكثر من مرّة، ولكنه يُنهضني، ويقودني بعنف إلى خيمة جديدة، والدماء باتت يابسة على جسدي ووجهي، يدفعني داخل الخيمة، فأجد فيها ثلاثة أشخاص، بينهم اللون الأبيض الذي كان بالأمس، يُجلسوني على الأرض، ويبدؤون بطرح الأسئلة مباشرة، ودون مقدّمات، أطلب ماء، فلا يُحضرون، أطلب طعاماً، فلا يُحضرون.

فقط أسئلتهم كانت مصوّبة نحوي كسهم قاتل، مسلسل الأسئلة لا ينتهي، وحين أخفقوا في الوصول لنتيجة تُرضيهم، نهض الرجل الأبيض،

وضربني ضربة واحدة، جعلتني أنغرس داخل الرمل، لأرى جسدي كله وقد تحوّل إلى لوحة فسيفسائية، بفعل حبّات الرمل التي أصبحت جزءاً منه، رفع مسدّسه في وجهي، وجعل مقدّمته تُلامس جبهتي، وأدار الطلقة الأولى في المخزن إلى بيت النار، وبات المسدّس جاهزاً، وبدأ يعدّ لي قائلاً:

- سأعدّ حتّى خمسة، فإن لم تعترف، ستموت ..

١ – ٢ ويبدأ بالعَدّ ببطء شديد، والنار تأكل في جسدي كله، أرتجف كما يرتجف خروف صباح العيد.

٣ - لا، لن أقول إني حملتُ السلاح ... لن أعترف ... لن أتكلّم ...

٤ - إنها شهادة، وهذا ما جئتُ من أجله .. أنطق بالشهادتَين أكثر من مرّة.

٥ - ويُطلق الزناد، ليخرج معها صوت مُدوّ كبير، أُغلق عينيّ، وأشدّ جسدي مع سماع الرَّقْم ٥، ولكن المسدّس لم يكن فيه طلقات أساساً، أنهار أمام عيونهم، وهم يضحكون.

نقلوني إل مكانٍ آخر، خيمة قريبة، حيثُ أجلسوني على كرسيّ، يحملُ اسم الاعتراف، حيثُ فيه جهاز لكشف الكذب، قالوا لي بمجرّد أن كذبتُ، سينفجر بي، تمضي ساعتان أو أكثر، وينتهي التحقيق، ليُخرجوني بعيداً عن الخيمة بعد أن أعادوا لي ملابسي القديمة، ورموني من جديد على الرمال، أنظر عن يميني، فأرى ذلك الشابّ ما يزال موجوداً، حيث رأيتُه أوّل مرّة بهيئته التي تُثير الراحة في النفس، أما أنا، فقد كان التعب والنعاس والدماء تسيطر على مظهري كاملاً.

أحاول النوم، وأسترخي مُلقياً كل شيء خلف ظهري المُتعَب، ما هي إلا نصف ساعة أو أكثر بقليل حتّى يأتي جندي، ليعيد ما كان قد بدأه،

فلا نوم في هذا المكان اللعين، بعدها بلحظات، يأتيني الرجل الأسود، ليصحبني بهدوء إلى خيمة أخرى، فيها وجوه جديدة، ولكن، بدون كرسيّ لكشف الكذب، أدخل مقيّداً بكامل لباسي، وأجلس على الأرض، وقبل أن يطرحوا أسئلتهم، تقدّم الرجل الأسود، وأخرج ورقة باللغة العربية، وأعطاني إيّاها، وبدأ يقرؤها أمام الآخرين باللغة الإنكليزية:

الورقة التي معي فيها جملة واحدة، مفادها:

المعتقل ١٠٦٣٨٤ لقد تمّ الحكم عليكَ بالإعدام ..

يتناول الرجل الأسود بندقيّته، ويضع فيها مجموعة من الرصاصات، ويشدّ الزناد إلى الخلف على مَرأى من عيني، والكل واقف، يُطلق النار في الهواء، فتخترق الطلقة الأولى الخيمة، لتدخل أشعّة الشمس كما هي من ذلك الثقب، يُطلق الثانية أيضاً خلفها، وهو يقول: الخامسة برأسكَ ستكون، الثالثة، وأتبعها الرابعة مباشرة، وجاء دور الخامسة، يُصوّب فوهة البندقية إلى رأسي بالفعل، ويُطلق النار حقيقة، عندها أصيح سأقول كل شيء؟!

يبتسمون بين بعضهم البعض، وكأنهم حقّقوا نصراً كبيراً.

أنظر إلى الرمال في الخيمة، فقد تطايرت يميناً ويساراً بفعل الطلقة الخامسة التي أخرجها الرجل الأسود، فهو أدار فوهة البندقية لحظة الإطلاق فضلاً عن أن الرصاص الذي كان موجوداً لم يكن حقيقياً البتّة، لقد كان مطّاطياً، تبدأ دموعي بالانهمار، ومعها بدأتُ الحديث، وعليَّ أن أُقنِعَهُم بكلِّ ما سأقولُه.

أنا حقيقةً طالب في جامعة بغداد، لم أعد إلى بلدي قبل الحرب، لأن المخابرات العراقية حجزتْ جوازي، ومنعتْني من السفر كأغلب الطلاب العرب هنا، بقيتُ رغماً عنّي، طلبوا منّي حمل السلاح معهم ضدّ الجيش

الأمريكي، ولكنني رفضتُ، لأني لا أعرف شيئاً بالعسكرية، ولا حتّى كيف يتمّ فكّ وتركيب السلاح، فأجبروني أن أنضمّ إلى الدروع البشرية التي قَدمتْ من بقاع الأرض كلها حتّى من أمريكا نفسها، ذهبتُ مع البعض إلى كربلاء، لأكون أمام العتبات.

- ما اسم الضابط العراقي الذي طلب منكَ الانضمام إلى الدروع البشرية؟

- لا أعرف، كانوا يقولون له (أبو خالد) ...

- هل رأيتَ أحداً من المطلوبين لقوّات التحالف؟

- لا ...

- هل تعاملتَ مع مَن يُسمّون أنفسهم المقاتلين العرب؟

- رأيتُ بعضهم في شوارع بغداد، ولكني لم أتكلّم مع أحد منهم، ولم أتعرّف على أحدهم.

يصمتون جميعاً، وبدا عليهم تصديق ما قلتُ، ولكن، هم بحاجة لجولة أخرى حتّى يتأكّدوا من أقوالي، يأخذني جندي بعدها بعنف شديد، ويرميني على الرمال وحيداً بلا طعام ولا شراب، ولكن، بقيد شديد بيديّ وقدميّ ...

مضى نصف هذا النهار العصيب والوجوه العابسة كلها موجودة هنا، يمرُّ الوقت، ويعود ذلك الجندي الذي كان معي قبل طلوع الفجر بقليل، يعود، فأعرف أن ثمّة هناك جولة أخرى من الصراع معه يمرّ بقربي صامتاً للحظات، ثمّ يعود ليصرخ في أذني، ويضربني بقَدَمَه على خاصرتي، ويسحبني معه مشلول الإرادة، يمشي حوالي مئة متر أو أكثر، وندخل إلى

مكان مغلق بالكامل، يدفعني أمامه دفعاً، لأقف في رتل من المعتقلين، لا أعرف مصيري بينهم.

تقلّ وتنقص المسافة بيني وبين البداية، فقد كان كلّ معتقل حسب رَقْمه، يتمّ توجيهه إلى مكان محدّد، لأصل أخيراً بعد أن توقّفتْ دورتي الدموية، ينظر الجندي إلى رَقْمي، وإلى ورقة بيده، ويتكلّم مع جندي آخر بلكنة سريعة، لا أكاد أفهمها، يطلب منه أخذي إلى الداخل، أمشي مع ذلك الجديد بصمت وخشوع وهيبة الموت حاضرة أمامي، تراني ارتكبتُ أكبر حماقاتي حين رويتُ لهم قصّة جديدة، قطعاً، فليس ثمّة هناك مَن سيتحمّل ما تحمّلتُه من ألم وجوع وضرب، يتوقّف الجندي أمام باب حديديّ صغير، ويدخل قبلي، ويسحبني وراءه.

هناك وقفتُ وأمامي بعض المعتقلين، يتقدّمون الواحد تلو الآخر، الذي أمامي مباشرة يتقدّم، لقد أصبح أوّلاً، يسحبه جندي، يتأكّد من رَقْمه، ويُلقيه أرضاً، ويبدأ بضربه على مَرأى منّي، يُقلّبه يميناً ويساراً، ويرفع رأسه، ويضربه بالأرض، يدوس على وجهه الذي لا أراه، يقفز على ظهره مرّات عديدة، يرفعه، فيستدير المعتقل، ليصبح وجهه قبالتي.

إنه النقيب محمّد، لقد عرفتُه برغم الدماء على وجهه، حالة جنونية هستيرية تنتابني، إنه النقيب محمّد الذي كان معي في الكُلّيّة العسكرية الثانية ببغداد، والذي أجابني عن سؤالي ... أين نحن ذاهبون ..؟؟ إلى عند أبي جدّك؟ ..

إنه هو .. أتذكّر ضحكته المُدوّية، وإصراره على الانتصار، برغم إدراكه التامّ بأن الهزيمة هي حليف العراق ...

محمّد صامت، لا تحرّكه ضربات ذلك الجندي الذي سئم من صمته،

فأخرج مسدّسه، وصوبه تجاه محمّد الذي بصق عليه، فانهال بكعب المسدّس على رأسه، وبقي يضربه إلى أن جعل فيه فتحة كبيرة، والدم يغطّي وجهه وجسده والمسدّس والأرض.

قبل أن يُسلم الروح، تلتقي عيناي عينيه اللتين صوّبهما نحوي، وهو يبتسم، ربّما لم يكن يراني، ولم يتذكّرني مطلقاً، ولكن، ما كنتُ متأكّداً منه أنه رأى ما كان يتمنّاه.

الجندي يضحك، ويرمي محمّد بعيداً، يجذبني مكانه، ينظر إلى رَقْمي، وإلى ورقة بجانبه، ويعيد الكرّة مرّات عدّة، ثمّ يصرخ لجندي آخر، يطلب منه إخراجي، لم يكن رَقْمي موجوداً في الورقة عنده، فخرجتُ من ذلك المكان، وكأن القَدَر قد رسم لي أن أدخل خطأ، لأشهد رحيل ضابط، عرف جيداً أن العراق سينهزم، ومع ذلك، قاوم بكلّ ما فيه.

أخرج من ذلك المكان الذي لن أراه مرّة أخرى، وأصوات صراخ من كان بعدي تخترق مَسمعي، وتمُزّقني على هذه الحال.

الوقت قارب على المساء، ولا طعام ولا شراب ولا راحة، والرمل بانتظاري، أجلس قليلاً، ثمّ يأتيني اثنان، ليأخذاني بطريقة حيوانية بشعة، يضرباني طوال ما يقارب خمسين متراً أو أكثر، ويُدخلاني إلى خيمة، يجلس فيها ضابط أمريكي، ومعه مترجمة، تتحدّث العربية بركاكة، وعلى طاولة أخرى، ثمّة رجل شبيه بالعرب، يجلس صامتاً، وينظر إليّ بتفحّص وتحفّز واضحَين.

أدخل إليها، ليعطيني ذلك الضابط كرسياً، فأصرخ فيه، جنودكَ ضربوني، وأهانوني، وعاملوني كحيوان ...

Don't worry

وبدأ طرح أسئلته، ولكن، بهدوء تامّ أثارني، وجعلني أسترسل في السرد، وراح هو يُدخلني في دهاليز مظلمة حتّى يجعلني أتناقض، كأن يسألني عن لون الحافلة ونوع السجائر التي كنتُ أشربها، ومن أين اشتريتُها.

يتدخّل ذلك الرجل الصامت بعد حوالي الساعة أو أكثر من دخولي، ليكتب ورقة يُعطيها للضابط الذي يسألني بدوره ..

- لماذا اخترتَ الدراسة، في العراق؟

- لأنها تُناسِبني.

- هل أنت تتبع لأيّ تنظيم؟

- لا ...

- هل التقيتَ مع أسامة بن لادن؟

- لا ...

- ما رأيكَ به؟

- رجل يفعل ما يقتنع به ..

- وما رأيكَ بقناعاته وتصرّفاته؟

- ممم ...

يتدخّل مرّة أخرى ذلك الرجل الصامت، ويمرّر ورقة أخرى للّذي يحقّق معي ..

- لو ذهب الجيش الأمريكي إلى سورية، ماذا ستفعل؟

- أردّ عليه بحزم ..

لو ذهبنا نحن إلى واشنطن، ماذا ستفعل أنتَ؟ ...

ينظُرُ إلى جندي يقف عند باب الخيمة، ويتحدّث معه بلكنةٍ أمريكية سريعةٍ، لا أفهمُها، وما هي إلا ثوانٍ معدودة حتّى كنتُ خارجاً، أنتظر سيّارةً عسكريةً، ستنقلني إلى داخل المُعتقل، ولتقودني المُصادَفةُ، لأن أجلِسَ بين العسكريّين العراقيين في المخيَّم رَقْم خمسة، ولأرى الحربَ من زوايا مختلفة عمَّا قبل الرابع عشر من نيسان لعام ٢٠٠٣.

***

في فضاء إسطنبول

صوتُ المُضيفةِ يُخرجني من التحامي مع الورقة البيضاء، تسألني: هل تودُ أن تشربَ شيئاً؟ في الحقيقةِ لم يكن يعنيني إلّا أن أُكمِل ما بدأتُ بهِ، مرَّت اثنتا عشرة سنةً كاملة على ذلك الموقف، لا شأنَ للسنوات بتغيير الأحداث، إنَها تأتي هكذا فجأةً كالحبّ، الذاكرةُ عندي مرتبطةٌ بالمُدُن، وبرغمِ المُدُن التي عبرتُها إلّا أن علاقتي مع الأماكن مُربِكة، إنَّها اللحظة المتحرّكة في الذاكرة، هكذا قال لي مرّةً صديقٌ قديم، ثلاث ساعاتٍ ونصف تقريباً قضيتُها بتأمّل ما كتبتُ، لم تكن تعنيني الغيوم التي أعبرُها بين السماء والأرض في نقطةٍ مُعلَّقةٍ في فضاء المجهول، وجوهُ الركّاب تحمِلُ قصصاً مُختَلِفة، هنا العالم بتفصيلاتِه وعموميّاتِه، حاولتُ النوم إلّا أنَّ صوتاً داهمني، يطلب ربط الأحزمة استعداداً للهبوط في إسطنبول.

هذه المدينةُ الغريبُ أنا فيها كان قلبها أكبرَ من خيالِ كاتب، وأصغرَ من صورةٍ شعريَّةٍ عربيَّة، فيها مساحاتٌ كافيةٌ لاستقرار بعض الموتى والأحياء الموتى أيضاً، مع قدومي، ظننتُ لوهلةٍ أنّي سأكون واحداً منهم بعد حين، فَرُحتُ أحفظُ أسماءَ شوارِعها، حروفَ أبجديّتِها، ابتساماتِ الجميلاتِ فيها، عبوسَ رجالِها، تفاصيلَهُم وتفاصيلَها الدقيقة، كنتُ يقيناً أنّي عابرٌ بها، ولكن، ربمَّا هي الوحدةُ، فالوحدةُ قاتلةٌ كداءٍ، يتربَّصُ بالإنسان، ليفتكَ بهِ دون غفلةٍ منه، الوحدةُ تنتشرُ كَمَرَضٍ عُضالٍ على مهل، كَوَرَمٍ خبيثٍ أو حميد، لا فرق، وقد حاولتُ مراراً أن أُبدِّدها، ومراراً أخفقتُ أيضاً!!

الوحدةُ دفَعَتني، لأُعيدَ رسم ذاكرتي كلّها من جديد، اخترعتُ مكاناً جديداً لميلادي وأهلاً آخرين، فصَّلتُ حبيباتٍ على مقاس رغباتي وشذوذي، بحثتُ عن أصدقاءَ جُدد، أعطيتُهُم مهناً، كنتُ أودُّ لو كنتُها، ألَّفتُ أغاني لنفسي، وحطَّمتُ المعلَّقات التسع، حتّى الدِّين حاولتُ أن أبني عالماً روحيّاً جديداً لي، وأخفقتُ!!

محاولاتٌ مستميتةٌ منِّي لإرضاء آخري في الحكايات، لعلَّهُ يقبل الاعتذارات كلها عن الألم الذي سبَّبتُه له، اليوم هو الأوّلُ من أغسطس، آب لعام ٢٠١٤، وأنا أسيرُ قرابةَ العصر في سراديب إسطنبول، هذه المدينةُ التي تحتفظُ بقاعِها بمقاتلين، قَضوا في حروبٍ، مرَّت على هذه الأرض، أمواتاً لم يُخبِروا أحداً عن تفاصيلِ رحيلِهِم، بعد أيّامٍ من وجودي فيها، أدركتُ أنَّهم ليسوا ضحايا حرب، بل هم أبطالُ قصصِ عشقٍ قديمة، لوهلةٍ، ظننتُ أنِّي سأكون في قائمةِ أسمائِهِم المحفورة على الجدران القديمة، ولكنِّي واجهتُ شوارع المدينةِ القاتلة مُعلناً أمامها أنِّي لن أكون مشروعاً للموت، لذلك اقتنتْني بين رفوفها عاشقاً صامتاً وحيداً عابراً!!.

المشاريع الكثيرةُ المؤجَّلَةُ في إسطنبول تُغويني باقتناص أحدها، ولكنِّي أفضِّل الصمت دون الانقياد إلى حربٍ جديدة، أُحبُّ الطرفَ الثالث، ذلكَ الذي يقفُ فيه الجبناء، هل أنا جبان؟؟ لستُ أدري، حقيقةً لا نأخذُ فرصةً لاختبارِ أنفسنا، إن كنَّا جُبناء أم لا!! لم يتوصَّل الطِّبّ بعد إلى عقارٍ، يستطيع فكَّ شيفرة الضعف الإنساني، لستُ جباناً، ولكنِّي أخاف، عشتُ حياتي كلَّها في الخوف قبل أن آتي إلى هنا، بدايةُ خوفي كانت من الموت، لقد ارتبطت ذاكرتي بالموت في مشاهدِها الأولى حين كانت جدّتي تستقبل الموت ذات صباحٍ في غرفتِها القديمة، المشهدُ كاملاً ما يزال في مخيِّلَتي، بعد ذلكَ المشهد بأيّامٍ، روى كثيرون أنَّهُم رأوا

جدّتي عائشة في المنام، تلبسُ الأبيضَ، وتجلسُ على عشبٍ أخضر فسيح في فناءِ قصرٍ واسع، ولمَّا سمعَ الروايةَ شيخُ القريةِ، أقسمَ أنَّ جدّتي في الجنَّة بقلبِ حواصل طيرٍ خُضر، حينَ سمعتُ الشيخَ يتحدَّثُ عن الطير والحواصل والجنّة، نظرتُ مراراً إلى السماء مُنتظراً طيراً يضلُّ الطريق، ليهبط إلى الأرض، فأرى جدّتي، وأسألها عن أحوال ذلك العالم، ولكن، لم يعد أحد، في الحقيقةِ لم يضلّ أحدٌ الطريق بعد!!.

حينَ كبُرتُ قليلاً، صارَ لديَّ خوفٌ من المقابر، وبعد أن ذهبتُ مرَّةً إلى الجامع، صرتُ أخاف من الله صاحب العذاب الأليم، وحين أدركتُ أكثر ما حولي، صرتُ أخاف من الحبّ! في الحقيقة، لم أكن أحتاج إلا إصرار أنثى للبقاء، عزيمةُ الرجُلِ وحدها لا تُحيي الحبّ، بل بقليلٍ من إصرار أُنثى، يفوح زهرُه ملء المكان! أمام البوسفور لا يُمكن إلا أن تتذكَّر الخيبات الماضية كلّها، خيباتي كانت من نوعٍ آخر، سأكونُ صريحاً أكثر، أنا لم أقع في الحبّ إطلاقاً، أتحدَّثُ دوماً عن حبٍّ عظيمٍ ضاع، أكتبُ عن خيبتي بامرأةٍ، لم تكن أبداً، محاولةً منّي للبقاء على قيد الأمل بحياةٍ جديدة بعد أن فقدتُ الأملَ بالعودة نهائياً إلى جذوري، الآن فقط أستطيع أن أرمي أفكاري كلّها في الماءِ، مُدَّعيَاً أني مُنسَجِمٌ أمامهُ حدَّ التوحُّد، نحنُ نتوحَّدُ دوماً مع الأشياء الخطأ التي يصير حلولنا فيها ضرباً من الخيال، قد نحتاجُ الخيالَ أحياناً، أو كثيراً، لنهرُبَ من الواقع، لماذا أفشيتُ بالسِّرِّ الآن، وكان بإمكاني أن أعيش الكذبة حتّى نهاية هذه الحكاية، أن أُقنِعَكُم بأنيِّ عشتُ تفاصيلَ مع امرأةٍ، لم تكن، وقبَّلتُ شفاهاً، لم أصِل إليها؟ ببساطةٍ لأنيِّ أودُّ أن أكون نزيهاً معكم، وأروي أشياء حدثَت بالفِعل.

***

أسيرُ في شوارع إسطنبول باحثاً عن فندقٍ رخيص الثمن، في الفنادق

الرخيصة، يمرُّ العابرون واحداً واحداً دون أن يتركوا أثرَهم، عابرٌ أنا إلى الضفَّةِ الأخرى من بحر إيجة، هذا أصل الحكاية، لهذا عليَّ أن أرتاد الأماكن التي يتواجدُ فيها المُهرِّبون، المُهرِّبون مهنةٌ جديدةٌ بين السوريين، لم نكن نعرفها فيما سبَقَ، أمرُّ بينَهُم في المقاهي التي يحجزون أماكنَ لهُم فيها بأسماءٍ وَهْميَّة، وأرقام هواتفَ نقّالَةٍ غير دائمة، يحكون هنا عن الرحلات السريعة التي تخوضُ البحر، لا تشعر أبداً أن خوفاً من البحر يسكن في حنايا الكلام، لا خوفَ من الموج والأسماك، ثائر الحمصي واحداً من أولئكَ الذين اجتمعتُ معهم في مدخلٍ فرعي من شارع الاستقلال الشهير الممتدّ من ساحة تقسيم التاريخية وسط إسطنبول، بكثيرٍ من الدهاء، طلَبَ كأسينِ من الشاي، وأخبر النادلَ أني مُسافِر. في إسطنبول حين تكون عابرَ طريق، لا يأخذُ النادلُ منكَ مالاً، هي ثقافةُ المكان والناس عُرفاً بين الجميع، أتوقَّفُ للحظات قبلَ أن أمضي مُنتظراً هاتفاً آخر، يحدِّد لي موعداً جديداً للقاء بعد يومَين، حاولتُ خلال يومَين آخرَين أن أكتشِفَ المدينة، أن أبحثَ فيها عن بقاياي التي مسحَها التاريخ والدولةُ الجديدة، لا شيءَ تغيَّر سوى الإنسان فيها، أسواقُها القديمة، جوامِعها التاريخية الشاهقةُ، أسرارُ بوّاباتِها وحكايات العابرين منها، لا شيءَ تغيَّرَ سوى الإنسان، نحنُ عابرونَ أيضاً، كثيرٌ من السوريين رأيتُهُم منتشرين على قارعة الطريق، وفي المقاهي ينتظرون مُهرِّباً، يكذبُ عليهم، ويَعدُهُم بنقلِهِم إلى الفردوس الموعود، صُوَرُهُم باتت جزءاً من المكان، صاروا مألوفين على أبواب المطاعِم الغريبة والمقاهي البعيدة عن أعينُ الدركِ التركي.

هي معادلةٌ غريبة في أن تكونَ تركيا بلداً للعبورِ نحو العالم البعيد، العالم البعيد ذلكَ الذي يُدغدغُ أحلام الكثيرين، اليوم بعدَ وصولي بعامٍ كامل، أستطيعُ أن أقول إنَّهُ صورةٌ أخرى للشرق، هنا الديكتاتورُ يأخُذُ صورة مُختَلِفة، ليأتي بزيٍّ لا يحملُ نياشينَ الانتصارات الكبيرة، وبقناعٍ غيرِ قناعِ

بطولةِ الأيّام الطويلة، هنا في الجهةِ الأخرى من البحر الأبيض المتوسط، لا يُسمَحُ لكَ أن تكون ما تريد، لأنَّكَ رَقْمٌ في مُتتاليةٍ طويلة، في الحقيقةِ، لم يُخبِرني أحٌد بذلك في الثاني من أغسطس لعامِ ٢٠١٤م،و ربمَّا تحدَّثَ أحدٌ بذلكِ، وأغلقتُ أذنيَّ عن النصيحة، فالأبوابُ المغلقةُ في وجهِ الكثيرين لا تجعلُ إلا البحرَ فناءً لنا، كان من الممكنِ أن أبقى في تركيا، ولكنَّ فكرةَ البقاءِ هناكَ لصحفيٍّ وكاتب ما هيَ إلا إعلان الإفلاسِ والجوع فضلاً عن لعنةِ الأوراقِ المنتهيةِ التي أحملُها أو الجنسية الفلسطينية التي تحملها داماس ابنتي ورفقة زوجتي، كنتُ محاصراً تماماً، والعالمُ كلّه تحوَّلَ لعلبةٍ كبريتٍ صغيرة، ولا طريقَ إلا البحر!. مكتبة

السجنُ ليسَ فقط في مكانٍ مغلق تماماً ببابٍ حديديّ مُتماسك في كُلِّيَّته، قد يكونُ السجنُ أرضاً فسيحةً، يأخُذُ فيها كثيرون دور السَّجَّان، أُقفِلُ عائداً عابراً من غلطة سراي نهاية شارع الاستقلال، حيثُ وقفَ بعض المطالبين بحقوق المثْليين، مررتُ محاذياً لهم تماماً في اتِّجاهي الفندق، ما إن دخلتُ حتّى تذكَّرتُ أوراقي التي كتبتُها في الطائرة، ولديَّ مُتَّسعٌ من الوقت للقاءِ المُهرِّب، فنهضتُ من على الكنبةِ الرخيصةِ سريعاً، لأتلقَّفَ حقيبتي الصغيرة، وأخرجتُ أوراقي، وبدأتُ الكتابة.

المدينة المقدّسة

العراق – كربلاء - ٢٠٠٣

صمت رهيب يجتاح الزمان والمكان، لا تكسره سوى ضحكات وصرخات بعض الجنود من هنا وهناك، والحياة عادت طبيعية إلى كل شيء خارج أسوار المدرسة بعد أن سقط النظام، جلبة يصحبها ضجيج وحركة غير عادية في هذا المكان، تُنذِر ببدء رحلتي إلى المجهول الذي لا أعلمه بتاتاً.

مع الهدوء الذي ساد في الخارج ومع الاستقرار الوَهْمي الذي بدأ يلوح بالأفق، أتت حافلة بيضاء متوسطة، يقودها جندي أمريكي، لتقلّنا مكبّلين منزوعين من كل شيء، صعدتُ إلى الحافلة، ولا أرى شيئاً في هذا الظلام الدامس سوى إبراهيم الذي عاهدني على عدم البوح بأيّ شيء حتّى لو رموه بالرصاص.

إبراهيم، شابّ يكبرني بالعمر بقليل، أسمر البشرة هادئ الملامح والحركة، لا يثيره هذا الدمار الذي نحن فيه، وربّما كان يجتاحه من الداخل كإعصار، لا يُراد له الخروج أبداً.

سيّارات عسكرية أمامنا وخلفنا، وجنود مُدجّجون بأسلحة متنوّعة، لا أعرف لماذا؟ فكلّ ما أعرفه أو أستطيع إدراكه أنه السابع من أبريل ليلاً.

رحلة قصيرة، نصل بعدها إلى أطراف كربلاء، لنقضي الليلة في غرفة مغلقة برفقة خمسة أشخاص آخرين، يعود الصمت، ليخيّم على كل شيء، والخوف يجتاحني من هذا الصمت.

يقتحم عسكريّ المكان، ليُخرجنا الواحد تلو الآخر، يبطحني أرضاً، ويخلّصني من كل شيء، نقودي ومحفظتي وخاتمي وكل شيء، يُعيدني بعد ذلك مسلوباً من أشيائي المحبّبة.

لا سبيل للنوم أبداً، فأيّ نوم سيأتيني في ظلّ هذه الظروف التي باتت تخنقني وتهزّني من الداخل، لا شيء يُنقذني من توتّري وضياعي إلا الدعاء، يلهج لساني به، حتّى أصيح من فرط ألمي:

"اللهمّ، يا قويّ، يا عزيز، يا متين، فُكَّ أسْرَنَا جميعاً".

أطلب من الحارس أن يُخرجني، لأقضي حاجتي، فيسحبني بعنف، ويدفعني خارجاً، وهو يُسلّط عليّ سلاحه الذي تأهّب لإطلاق النار منه، يطلب منّي قضاء حاجتي أمامه، وعلى مَرأى عينه، أرفض ذلك جازماً، يضربني بكل ما اعتمر قلبه من حقد تجاه العرب، فأشيح ببصري يميناً، لأرى حوّامتَين عراقيتَين مدفونتَين تحت الرمال، وقد زاحت الرياح بعض الرمال عن المروحية.

هل من المعقول أن يكون القاع الأسفل هو مكان الطائرات التي من المفروض أن تعتلي عرض السماء، لتحمي مَن هم على الأرض؟! قطعاً كان هناك مؤامرة كبيرة لتدمير كل شيء، والصّحّاف ما يزال يخرج، لِيَعِدَ الجميع بانتصارات عظيمة.

الصّحّاف؟! يعودُ هذا الاسم للحضور أمامي من جديد، في عام ٢٠١٠ سمعتُ أنَّ محمّد الصّحّاف يتواجد في مكان، كنتُ فيه بدولةٍ عربية، لم يكن يَعنيني حقيقةً بشيء وقتَها سوى أنَّهُ شكَّلَ حالةً حقيقية في مخيّلتي عام ٢٠٠٣ بأن العراق العظيم سينتصر.

الصباح يأتي من جديد، والقيد ما يزال في يدي، وعصابة من القماش

الخشن تغطّي عينيّ عن تلك الزلازل كلها التي تحيط بي، ولكن، حتماً كنتُ أُدركها كما هي.

- أنتم إرهابيون، ووقفتُم بوجه دخول الجيش الأمريكي لتحقيق الحُرّيّة لهذا الشعب، لذا، سنأخذكم في رحلة طويلة إلى مكانكم المناسب.

كلمات لفظها ضابط، يلبس الزّيّ الأمريكي، ويتحدّث العربية بطلاقة، لفظ الجملة الأخيرة بحسم، وأتبعها بضحكة صفراء، كنتُ يقيناً أعرف معناها.

إلى غوانتانامو إذاً، كان هو المعتقل الأشهر في العالم والأقسى على وجه الأرض، لحظات، وتأتي سيّارة عسكرية، لتنقلنا سريعاً إلى النجف، يضعوننا ما يقارب الساعة هناك، خلالها اقترب جندي منّي، وصاح في وجهي:

- جهاد، فدائي.

كان الأمريكيون هنا عندهم حساسية مفرطة تجاه هذه الكلمات، يعرفونها عن ظهر قلب، ويدركون معناها تماماً.

نرحل من جديد من هذه المدينة المقدّسة، وكل القداسة التي تحيط بها باتت خلفنا، أستطيع وأنا في السيّارة العسكرية أن أرى من تحت القماش الكريه، أرى صورة ضبابية غير واضحة، أحاول أن أحدّق في هذه المدينة التي هزمتْها بيوتُها.

أرى رجالها ونساءها يمشون، كما لو أن شيئاً لم يكن، وما تزال جدرانها تحتفظ بتلك العبارة المشهورة في العراق: "إن تنصروا الله لا غالب لكم".

انتهى المطاف بنا في صحراء ذهبية واسعة، تتوزّع التلال فيها كموج البحر، هذه الصحراء يُطلق عليها العراقيون بحر النجف، أدخل إليه بلا قارب، أو طوربيد، أو حتّى عوّامة للسباحة، لأغرق فيه، وأنزف عَرَقاً وَدَمَاً.

نصل إليه بعد رحلة طويلة، وسيّارات عسكرية تحوطنا من كل اتجاه، نهبط مقودين دون إرادة منّا، إلى مكان، لم أتوقّع طيلة حياتي أن أكون فيه يوماً، مكان مقفر حقير وضيع.

عسكرٌ في كل مكان، يقترب منّي واحدٌ منهم، يحمل في يده قطعة حديدية، يستغلّ فرصة ذليّ ومهانتي، ليرفعها بكل ما أُوتي من قوّة، ويُلقيها على وجهي مباشرة، لتجدع جزءاً من أنفي، وتُخلّف جرحاً عميقاً، لن يلتئم بعدها، بل سيظل علامة فارقة، تميّزني، وتستقرّ في شخصيتي وكياني.

أسقط أرضاً مَغشياً عليّ، والدماء في كل جانب، ربع ساعة أو أكثر، وأنا أنزف أمام عيونهم، والكل جامد لا يتحرّك، ينتظرون موتي، فترة من الزمن، أحسستُها بعمر الأرض، أتى بعد مضيها جنديّان في سيّارة صغيرة، ليضعا الكيس في رأسي، ويمضيا بي مقيّداً إلى داخل ذلك المكان الذي بلا أسوار.

أفتح عينيّ، لأجد نفسي مستلقياً، وأمامي جنود من كل لون ولسان، يستوقفني وجه فتاة، تتطابق إلى حدّ كبير مع جمال النساء في بلادي، تقترب منّي، وتمسح على وجهي قائلة: "Don't Worry"، لا تقلق، قالتْها بلطف، كما لو أنها من تلك الأرض التي عرفتُها، ينهرها أحدهم طالباً منها أن تلبس كفوفاً طبّيّة خوفاً أن أنقل لها الأمراض!

وضع الطبيب قماشاً أبيض فوق وجهي، وبدأ يخيط ذلك الجرح النازف دون تخدير، أنتفض بين يديه مرّات عديدة، وأحسّ أن أجلي قد اقترب.

دون تخدير، وتلك الإبرة الرفيعة تخترق جلد وجهي في المنطقة الفاصلة بين أسفل أنفي وشفتي العليا، أحاول أن أصيح من شدّة الألم،

فلا أستطيع، كنتُ متيقّناً أن مع حركة يَدَي ذلك الطبيب، ومع كل وخزة تخترقني ثمّة قنبلةً، ورصاصاً يخترق جسد العراق.

سريعاً يهمّون بإخراجي من خيمة الطبيب بعد أن أنهى لملمة جرحي النازف، فتستوقفني نظرة تلك الفتاة، كان في وجهها مسحة إشفاق على ما سيأتي لي، وما سيحلّ بي في المستقبل القريب.

يدفعني جنديّ إلى خارج الخيمة، لأرى كل ما لا أستطيع احتماله، خياماً مَبنية في كل جانب، ودبّابات منتشرة في كل ناحية، وطائرة كل ١٠٠ متر، أقف مذهولاً أمام هذا المنظر، فبأيّ وقت وأيّ زمان استطاعوا بناء هذا كله، وأمّ قصر لم تسقط بعد، كما يقول الصّحّاف؟!

يقطع ذهولي هذا صوت عسكريّ آخر، يطلب من الذي يقودني أن يضع الكيس في رأسي، لكي لا أرى شيئاً، ولكني رأيتُ، وانتهى الحلم، وانتهى معه كل شيء.

الظلام يخيّم على عينَي من جديد، والغبار والقذارة أكلتْ جسدي، لأرسم صورة للعراق العظيم الذي حمل الحزن والظلام أعواماً في داخله، وما طلع الصباح عليه، والحزن - أيّها العراق - نارٌ تُخمد الأيّام، وتَقتل الأحلام والآمال، وما فيكَ إلا النار والعدوان، لحظات قليلة من الذهول، وأعود في تلك السيّارة الصغيرة، وصوت أمّي في أذنيّ يرنّ قائلة:

"لا تخفْ، يا ولدي، أنتَ الأعلى".

أعود، لأجلس من جديد على تلك الرمال، ولكن، ثمّة شيء ما قد تغيّر، لقد أصبحتُ مشوّهاً أكثر، وأصبحتُ مميّزاً أكثر، ساعة، ثلاث ساعات، ستّ ساعات، والليل خيّم فوقنا وأشعّة X تُلقي بضوئها المزعج فوقنا، لا

سبيل للهرب أبداً، وحتّى إن نجح أحدنا في الهرب، فأين يذهب في قلب هذا البحر من الرمال الملتهبة؟

هذه التفاصيل كلها التي أرويها، ربمّا تبدو لكم مُملّة، أو غير عادية، وأعرف أني أدخل في دهاليز مظلمة، أحاول أن أُنيرها بشموع ذاكرتي، لعلّي أزيح العتمة عن أمر أقلقني منذ عودتي إلى عالم جديد بكل المقاييس، اسمه الحُرّيّة، الحُرّيّةُ التي لم أعرفها أبداً، فقد انتبهتُ فيما بعد أني خرجتُ إلى الحياةِ فقط دون حواجز السجن.

انتصف الليل، وأتى الجنود من جديد، ليضعونا في سيّارة عسكرية مغلقة مَعصوبي الأعين، ومُقيّدي الأيدي، ومَشلولي الإرادة، طريق طويلة، حاولتُ أن أنام فيها، ولكن، عبثاً.

أحسّ بضوء الفجر يخترق ستار السيّارة العسكرية الكبيرة، ودرجات الحرارة تبدأ بالارتفاع، ومعها يغلي بانتظام الدم في دورتي الدموية، لا أعرف أين يسير بي القَدَر، وإلى أين يأخذني هذا المجهول الذي يقود السيّارة.

بعد ارتفاع الشمس بقليل، وصلنا إلى مكان، لا أعرفه إطلاقاً، وكم هي الأمكنة التي عرفتُها ليوم أو أقلّ، ولم أرها مرّة أخرى! نجلس بصفّ واحد، والقلق أخذ منّا ما أخذ، ندخل في خيمة مفتوحة الأطراف من كل مكان، ولا طعام ولا ماء ولا لساناً عربيّاً حتّى الآن، وعسكريّ يقف إلى جانبي، يحمل رشّاشاً، وجنسية ما تُخوّله الالتحاق بجيش الغزاة القادم من كل مكان.

ينتصف النهار، وكل شيء ممنوع علينا حتّى التحدّث إلى بعضنا البعض، لا شيء مسموح سوى الإحساس بالقهر والمذلّة والصمت والتأمّل، لما آلت إليه الأمور، يأتي المساء، وأدركتُ وقتها أن هذا المكان خطوة باتّجاه ما هناك، خطوة باتّجاه ما لا أعرفه، تُظلم الدنيا كلها، وينام

كل شيء، وقبيل انتصاف الليل بقليل، يركلني عسكريّ تحت أضواء الكاشفات، ليأخذني بإذلال إلى خيمة، يجلس بها رجل كبير بالسّنّ، يتركني واقفاً أمامه، ويجلس خلفي واقفاً أتأمّله، وهو يرتدي برّة عسكرية أمريكية، يقول لي:

(هبيبي) ما الذي أتي بكَ إلى هنا؟؟

أجيبه، كما أجبتُ مَن قبله، وأصمت. يضربني العسكري على ساقي، فأخرّ ساقطاً، لا أتكلّم، يعود الضابط للحديث بلكنة عربية ركيكة جداً.

قل لي الحقيقة، لا شيء سوى الحقيقة.

أسأل نفسي أيّ حقيقة يريد هو؟ هل أقول له الحقيقة التي أعرف، إنهم غزاة؟ أم أقول له إن الحقيقة ليست لكل الرجال، بل هي لمَن يبحث عنها؟ فالحقيقة غير قابلة للجَدَل، الخبثاء قد يهاجمونها، والجهّال قد يسخرون منها، لكنها في النهاية موجودة ومستمرّة، والحقيقة الثابتة أمامي وقتها أني هنا أمامه هو، وعلى الضفّة الأخرى ربمّا كان صدّام حسين ما يزال يخرج، ليقول:

عاش الشعب، عاشت الأمّة، وما يزال الصّحّاف يخرج على الشاشات، ليَعِدَ الجميع بانتصارات كبيرة على العلوج.

تنتهي جلسة التحقيق، لأعود أدراجي والبرد قد خيّم على الأجواء، كما الظلام والجوع.

ساعة أو أكثر وتتحرّك الحافلة إلى مكان ما جديد بكل شيء، وصراع محتدم بين الظلام والنور خارجاً، ينتهي بانتصار الشمس دوماً، وإشراقها من جديد على الحقائق والأكاذيب كلها معاً.

نصل صباحاً إلى مكان غريب، يختلف عن الأمكنة كلها التي عرفتُها، بناء ضخم كبير، أمامه باحة إسمنتية واسعة على أطرافها الترابية، تتوزّع ثلاث خيمات كبار، ألمح فيها المئات من المحتجزين في داخلها.

نهبط من السيّارة المغلقة إلى هذا المكان، وأقف أمام البناء الكبير، لأدخله مَقوداً دون إرادتي، يقف أمامي ضابط أمريكيّ، يسألني بالعربية: ما اسمكَ؟ أين كنتَ؟ أين اعتقلوكَ؟ سريعاً أجيبه، فيدرك أني لستُ عراقياً، فيطلب منّي الجلوس في مكان منفرد في تلك الصالة الكبيرة، ويتهامس بعيداً عنّي مع شخص آخر، ثمّ يمضي.

يخرج الجميع من هذه الصالة الكبيرة، وأبقى وحيداً فيها، أنظر إلى الجدران، فأرى أقوال صدّام حسين ما تزال منقوشة هناك، ولكن، لا صور في المكان.

جلبة خلفي، ورجل يَبطحني أرضاً، ويضع قيداً حديدياً غليظاً في يدَيّ وقَدَمَيّ وعصابة قوية على عينَيّ، ويرفعني بقوّة كبيرة، ليدفعني بين اثنَين، يزيدان عليّ طولاً ووزناً.

خطوات سريعة جداً، وضربات مركّزة إلى ظهري وبطني، وسُلّم طويل نصعد به، وستارة أشعر بها تُفتَح أمامي، ويبدأ عسكري بخَلْع ثيابي، ثيابي كلّها، وقفتُ أمامهم عارياً مُقيّداً، لا أستطيع فعل شيء.

بحركة مباغتة، أسقطوني بزاوية قائمة، وأدخلوا مادّة حديدية صلبة في جسدي، شعرتُ بها تمُزّق أمعائي، أبكي ودموعي تُبلّل تلك العصابة التي تُغلق عينَيّ، وبرغم كل شيء ما يزال صوت أمّي يرنّ في أذني: "لا تخفْ، يا ولدي، أنتَ الأعلى".

أبقى عارياً ما يقارب النصف ساعة واقفاً على قَدَمَيّ أمام مَن؟

أمام مَنْ؟ لا أدري، ولا أعرف، فقد كنتُ معطوباً ومُشوّهاً وأعمى، يمضي الوقت، ويقترب الجنود منّي، ليأخذوني عبر ممرّ طويل إلى غرفة صغيرة، لا تتجاوز المتر ونصفاً طولاً، والمتر عرضاً، يربطونني من يدَيّ وقَدَمَيّ بعمود حديدي، يتدلّى من سقف تلك الغرفة اللعينة.

تمرّ الساعات والوقت ينتظر، ومعه أنا أنتظر متذكّراً مدينتي وأهلي وإخوتي وأصدقائي الذين عرفتُ، والذين تركتُ تحت الحصار، أهم بخير؟ سؤال سيظل يُلحّ.

يوم أو أكثر، وأنا مُقيّد إلى ذلك العمود، أصرخ، لا أحد يريد سماعي، أقضي حاجتي مكاني، وأبقى واقفاً بين القذارة، بعد مضي يوم تقريباً، يأتي عسكريّان: الأوّل يفكّ لي يداً واحدة، ويُبقي الأخرى مشدودة إلى ذلك العمود، ويزيل العصابة عن عينَيّ، فأرى الغرفة المظلمة لأوّل مرّة.

"Food ... Food ... Food"

يصرخ الآخر في وجهي، والأوّل يسلّط سلاحه تجاهي، أتناول لفوري ما أحضره معه، لكي لا أموت جوعاً.

قليل من الرّزّ وكأس ماء صغير فقط، هذا القليل من الرّزّ، لا يتجاوز المعلقتَين أو ثلاثاً لا أكثر، يبصق به على مَرأى منّي، ثمّ يعطيني إيّاه.

أرفض طعامه، فيكزني الأوّل بسلاحه آمراً إيّاي بالطعام، فآكل بصمت وقرف، وأشرب الماء سريعاً، وأعود لحالتي التي كنتُ فيها قبل أن يحضرا.

حاولتُ وقتها أن أفكّر في معنى الحزن وآليّته، أن أُعيد بعضَ ما

قرأتُ عن الحزن، في زمن مضى، فالحزن أن تخسر أشياء، لم يكن في حسابكَ خسرانها أبداً، وها أنا خسرتَ حُرّيّتي، هو أن تفتح عينيكَ على واقع لا تريده، وها هو الواقع الذي لم أردْ يوماً، هو أن تحصي عدد انتكاساتكَ، فتعجز عن العدّ، وكم كثيرة تلك الانتكاسات! على الأقلّ، منذ دخولي بوّابة العراق، هو أن تتمنّى عودة زمان جميل انتهى، وذلك الزمن الجميل قد أصبح الآن من الماضي البعيد الذي لا أتوقّع عودته إطلاقاً، بناء على معطيات الواقع الجديد، هو أن تتذكّر إنساناً عزيزاً رحل بلا عودة، وكم هم الذين رحلوا ومضوا، وكم هم محاصرون في غيابي، وعلى أمل عودتي.

الحزن وقتها كان أن أُغمض عينَيّ، وأفتحهما، لأكتشف أن لا أحد حولي سواه، أصرخ عليه، فلا يصله صوتي، وألفظ أنفاسي أمام عينَيْه، فلا يراني.

كنتُ على يقين أنَّ الحالة ستطول أكثر، ولا أعرف ما هذا المكان السيّئ الصيت والسمعة، ذهب تفكيري باتجاه آخر، فكم من العراقيين قضوا في هذا المكان في ظلّ نظام صدّام، وكما تُدين تُدان، ونحن بشكل أو بآخر محسوبون على النظام الحاكم آنذاك!.

تعود الساعات إلى دورتها، وما أزال أُبحر في هذياني وهلوستي الغريبة، هل سقطتْ بغداد؟ هل احتلّوا العراق العظيم؟ يقطع هذياني صوت عربي يقول لي: سنبدأ التحقيق معكَ بعد قليل؟

أيستحقّ التحقيقُ هذا الدمارَ كله، وهذا الموتَ كله؟ يعود جنديّان أو ثلاثة لأخذي بحركة غريبة، يتعمّدون إذلالي فيها، وأبقى عارياً من كل شيء، يأخذونني إلى غرفة أخرى، ويُجلسونني على الأرض، يتحدّث معي شخص ما بلغة عربية سليمة.

أسأله لفوري: هل أنتَ عربي؟

- مو شغلكْ،

أتيقّن أنه عربي، وأكاد أجزم أني عرفتُ من أيّ بلد هو.

أطلب منه إزالة العصابة عن عينَيّ، فيرفض، أُعيد السؤال أكثر من مرّة، يرفض مجدّداً، أقول له إني أحسّ أني فقدتُ نظري؟

لا يكترث أبداً، وكأن الذي أمامه ليس إنساناً، أصيح من فرط ألمي مطالباً برفع الغطاء عن عينيّ، وحين رفضتُ الإجابة عن أيّ سؤال، يوافق بعد أن سلّط على عينَيّ محوّلاً ضوئياً كبيراً، لكي لا أراه، أو بالأحرى، لكي يرى أسئلته، ولا يرى إجاباتي، لأنه حكم عليها مسبقاً أنها كاذبة.

- اسمكَ؟ جنسيّتكَ؟ ميلادكَ؟ دراستكَ؟ ماذا تفعل في العراق؟

السؤال الأصعب الذي سأتعرّض له طيلة الفترة المقبلة، والذي سيمثّل لي مفصلاً في كل تحقيق.

لا يقتنع، يتململ أكثر من مرّة، يقترب منّي، ويضربني بقوّة، وأبقى صامداً، لا يحرّكني أيّ شيء.

يسألني عن أسماء الأساتذة في جامعة بغداد؟ وعن المنهاج الدراسي؟ أجيب كما لو أني كنتُ فيها حقيقة، ومع ذلك، لا يقتنع، سنرسلكَ إلى غوانتانامو.

أصمتُ، ولا أجيب، تعاونْ معنا، نساعدكَ، ونُعيدكَ إلى بلدكَ، عندها ينطق رجل آخر بجانبه، لم أكن أراه، ينطق بعربية ثقيلة، يقول لي:

عبد الله، اسمعني، أنتَ أمام خيارَين:

الأوّل: أن تعود لبلدكَ وأهلكَ ودراستكَ وأحلامكَ،

والثاني: أن تبقى معنا حتّى تموت، وقبل أن تموتَ، سنرسلكَ إلى غوانتانامو.

غوانتانامو، غوانتانامو، غوانتانامو، تتردّد الكلمة في مَسمعي، غوانتانامو في أقصى جنوب شرق كوبا، معتقل سيّئ الصيت والسمعة، وضعتْه أمريكا في خدمتها عام ٢٠٠٢ لحجز مَن تعدّهم إرهابيين، وبالطبع، كان ذلك الرجل وغيره كثيرون يعدّونني إرهابياً بامتياز، لأني أخالفه، أو أقول الحقيقة التي لا يريد.

أتساءل الآن: هل كان الرئيس الكوبي طوماس يتوقّع أن تقوم أمريكا بتحويل غوانتانامو إلى قاعدة أمريكية حين قام بتأجيرها لهم في الثالث والعشرين من فبراير/ شباط من عام ١٩٠٣؟ وهل كان سيرضى بألفَي دولار فقط كأجرة، تدفعها أمريكا ممثّلة بتيودور روزفلت؟ ربّما كان سيفعل، فالرئيس الكوبي وقتها كان يريد التعبير عن امتنانه لواشنطن التي ساعدتْه لتحرير بلاده. يمرّ التاريخ، ورغم احتجاج الكوبيين على مبلغ الإيجار، إلا أنَّ أمريكا تصرّ على إرسال شيك ماليّ بالمبلغ ذاته، وعندما وصل الثوريّ فيدل كاسترو إلى حكم كوبا، وخلال أزمة الصواريخ الشهيرة في عام ١٩٨٦ والتي عُرفت تحت اسم ورتساك، وهو الاسم المقلوب من كاسترو، قام الأخير بزرع الألغام في القاعدة الأمريكية إصراراً منه على إجلائهم منها، ولكن، عبثاً رفض كيندي ذلك مؤكّداً حقّ بلاده في استئجارها، فالقوّة تصنع الحقّ، وتحميه، وبرغم الاعتراضات كلها، والانتهاكات كلها، بقي غوانتانامو يتردّد على لسان الجميع، بمَن فيهم هذا المحقّق الذي أجلسُ أمامه، والذي ظلّ يردّد على مَسمعي:

سنرسلكَ إلى غوانتانامو.

أصمت، ولا أجيب، يردف قائلاً: سنعود من البداية، ويعود الحديث إلى بدايته، ليركّز أكثر على تفاصيل دقيقة، يسألني مثلاً: أين كنتَ في الأوّل من أبريل/نيسان؟

- في بغداد،

- أين ذهبتَ بعدها؟

- إلى كربلاء،

- كيف ذهبتَ من بيتكَ في بغداد إلى المرآب الذي تنطلق منه إلى كربلاء؟

- بسيّارة،

- ما نوعها؟

- سيّارة تكسي،

- ما لونها؟

- أبيض وأحمر،

- بعد ذلك، ذهبتَ بالحافلة إلى كربلاء؟

- نعم،

- ما لونها؟

- أحمر،

- مَن كان فيها؟

- أناس لا أعرفهم،

- ماذا يتحدّثون؟

- عن كل شيء، عن صدّام حسين والجيش الأمريكي وعن دخولكم للمُدُن وأشياء أخرى.

- مثل ماذا؟

- لا أتذكّر،

- لماذا اخترتَ كربلاء دوناً عن المُدُن العراقية كلها؟

- أوّلاً لقداستها، وثانياً لأن لي فيها أصدقاء.

- قلتَ لي ما لون السيّارة التي ركبتَها من بيتكَ إلى المرآب؟

يحاول دائماً أن يجعلني أتناقض مع ذاتي مكرّراً عبارة واحدة، وأن لا شيء لديه ليفعله سوى التحقيق معي، حالة من الصمت الرهيب تجتاح الغرفة، وضوء الكشّاف بدأ يزعجني، كما العصابة تماماً، يقطع حالتي هو، ليقول لي:

- عبد الله، الجيش الأمريكي دخل بغداد اليوم، وأسقط تمثال صدّام حسين في ساحة الفردوس، فلا شيء ينفعكَ، لتُنكر ما تحاول إخفاءَه.

ماذا؟ سقطتْ بغداد، وانتهى كل شيء، لماذا؟ وكيف؟ ولأجل مَنْ؟ وبأيّ طريقة سقطتْ؟ لا أصدّق ذلك الكلام أبداً، وأقول له: أنت تكذب؟ أقولها بلغته الإنكليزية:

"You are liar?"

يضحك بصوت مُدوّ، ويفتح جهاز راديو، كان بجانبه، ليُسمعني إحدى المحطّات العربية التي كانت تتناقل الخبر الجديد.

احتلال بغداد

إنه التاسع من أبريل.

التاريخ يعيد نفسه مرّة أخرى، ومع بغداد الحبيبة يعيد نفسه مرّات ومرّات، حكايتها مع الغزاة والطامعين قديمة قِدَمَ التاريخ ذاته، الجنود الأمريكيون يحتلّون مدينة الصمت مدينة النخيل الصامدة، سقطتْ بغداد الجميلة، سقطتْ بغداد.

الدم الذي غطّى بغداد طوال عمرها اختلف طعمه الآن، بغداد المتروكة وحدها كيتيمة العواصم العربية، سقطتْ بيد مَن أتوا من وراء المحيطات، جنود أمريكيون في بغداد الرشيد، ومجازر وقتلى وشهداء بعشرات الآلاف، وتشريد وجوع.

في بغداد، جوع ودماء وموت، ولا أحد يعرف متى ستتوقّف، لا يكذب المذياع أبداً، وأكفر بالمعاني، إن كان غير القلب منبعها.

أصيح في لهف وحيرة وصمت، بغداد لا تزال تقاوم، يا أيّها الصمت في صمت المقابر في شوارع بغداد الحزينة، أرجوكَ، انطقْ، وكَذِّب الخبر اليقين.

سقطتْ بغداد العظيمة الحبيبة الزكية، يا مدينة الطوائف والملوك والخلفاء والشياطين، وداعاً، وداعاً.

- هل اقتنعتَ أن بغداد سقطتْ، والحرب انتهتْ؟

- لا أردّ عليه، وأبقى مع حزني وصمتي.

- لنعدْ إلى ما كنّا قد بدأناه، يقول هو، ويبدأ إدخالي في دوّامة الأسئلة من جديد.

تنتهي الجلسة، وأعود لمكاني السابق، كما كنتُ فيه، يمرّ الوقت عصيباً، والدقائق تمزّق الثواني، فأيّ مفارقة أعيش؟! الوقت يمرّ، ولا أعرف في أيّ فترة صرتُ من هذا اليوم العصيب، أحاول أن أهرب من وضعي وحالتي، فأفكّر بأوقاتي الجميلة التي قضيتُها قبل قدومي إلى هذه البلاد.

إنه الحبّ مَخرجي ومَهربي، أرحل إلى عينَي أوّل أنثى أحببتُها، لأستمدّ منها إصراراً وقوّة وعزيمة، فالعشق وحده ملجئي الوحيد ومكاني المناسب، وأنا الذي بنيتُ مملكة لنفسي، أسميتُها باسمها الذي بات يسير في الدم المسافر في جسدي.

أحبّها باللغات كلها، وبالطُّرُق المذهبية والصوفية كلها، لعلّي إذا ما تغنّيتُ باسمها، تولد فجأة من شفتَيّ الداميتَين.

أرحل إليها، لأتذكّر لقاءنا الأخير، لأتذكّر تفاصيله وتعابيره كلها، لم أُخبرها أني قادم إلى العراق، فهل علمتْ بذلك؟ وما هو شعورها، وردّة فعلها؟ هل ستحبّني أكثر؟ أم ستكرهني أكثر؟ في خضمّ هذه المشاعر الرهيبة، يدخل ذلك العربي بزيّه الأمريكي، ليحدّثني ويفكّ قَيْدي من ذلك العمود.

- اسمع، عبد الله، لقد تحدّثتُ معهم، ورجوتُهم، ليخرجوكَ من هذا المكان، لترتاح خارجاً، ولكن، إذا أردتَ أن تتحدّث بشيء، فاطلبني مباشرة، قلْ أريد دين (Dean).

أصمتُ أمام هذا العرض الغريب، وتلك الصفقة المريبة، وأدركتُ لفوري أنهم أدركوا أني لا أحمل معلومات تهمّهم، أو أنهم صدّقوا قصّتي التي رويتُها لهم.

يزيح الغطاء عن عينَيّ، ويعيد الوثاق إلى يدَيّ، ويدفعني إلى جنديّ، ليسلّمني إلى آخر، لأرى المكان كله لأوّل مرّة، ذلك المكان الذي لن أنساه، والذي انتهكوا فيه آدميّتي.

أنظر إليه بحزن وسط دفعات ذلك الجنديّ الذي أنزلني من السّلّم ذاته الذي صعدتُهُ قبل يوم أو أكثر، وليُعيدني إلى تلك الصالة التي نُقشتْ جدرانها بأقوال صدّام حسين، وعبارة الله أكبر. يُفتَح باب حديدي كبير، لأرى أن الوقت ليل، والصمت يخيّم على المكان كله.

أقطع الساحة الإسمنتية الكبيرة، لأصل إلى الخيمة الأكبر، ليرفع هو سياجاً من السلك الشائك العالي، ويُدخلني خلفه، ويدفعني بقوّة، الكل نائم، وكنتُ بحاجة إلى النوم، فاستغرقتُ فيه دون أن أفكّر بشيء سوى بأمّي وكلماتها:

" لا تخفْ، يا ولدي، أنتَ الأعلى".

إسطنبول ودمشق

يرنُّ هاتفي، فأتوقَّف عن الكتابة، كان المُهرِّبُ على الجانب الآخر، يطلبُ منّي الحضور إلى مقهى وطن، كانت خطاي تعبُّ شارع الاستقلال تاركاً ورائي ذاكرةً، لا أعرفُ سبباً لإفراغها الآن، وكأنيِّ أشعر أنَّ النهايةَ اقتربتْ، وعليَّ قولُ ما لم أستطع كتمانه حتّى النهاية، ربمّا هو البحثُ عن مَخرجٍ لهذا الحصار كله، في مواجهة الوطن، الوطن الذي باتت مُدُنُهُ تنهارُ واحدةً تلوَ الأخرى، النارُ تأكلُهُ شبراً شبراً، وتأتي عليهِ قطعةً قطعة، لا وقتَ لرؤيةِ الموت، فقَد فَقَدَ الموتُ هيبتَهُ في تلك البلاد، أنواع الموت كلُّها جرَّبها السوريّون، وموتي كان واحداً من أوجه الموت المستحيل، الطريقُ تمتدُّ نحو مقهى وطن، والمُهرِّبُ يستعجلُ قدومي، بينما كنتُ غارقاً في تلك التفاصيل الموشومةِ على جدران سوق "أمينيو" المصري في قلب إسطنبول، ومنهُ إلى أكسراي، ثمّ انحرفتُ يميناً عبر حيِّ الفاتح نحو شارعِ وطن، حيثُ يقعُ مقهى وطن في منتصفِهِ تقريباً، كان ثائر الحمصي ينتظرني. على طاولةٍ جانبية، جلسَ معهُ جوارَها شابَّانِ من درعا، عمر وعبد الرحمن، أخبرنا حينها أنَّهُ علينا التوجُّهُ صباحاً إلى الطابق الثاني من سوق طاشكان الأثري في أكسراي، لإيداع المبلغ المالي، واستلام الشيفرة الخاصّة بالوديعة التي سيستلِمُها هوَ فورَ وصولنا إلى الجزيرة اليونانية، مضى المُهرِّبُ، وبقينا نجترُّ، عمر وعبد الرحمن وأنا، قصص الحربِ التي تجري على مقربةٍ منَّا، كنّا أحد ضحاياها أيضاً، لأننا ضحايا الحرب، كنتُ أتعاملُ مع إسطنبول وغيرها من المُدُن بكثيرٍ من الحيادية، قلَّما يُبهرني مكان، ذلكَ الذهولُ

أمام الحجارةِ لم يصبني إلا مرّةً في القاهرة أمام أهرامات الجيزة، وتحديداً في السرداب بقلب الهَرَم الكبير، شعرتُ لحظتَها أني جزءٌ من ذلك التكوين السّرّيّ للمكان، يربطني بالعالم الخارجي حبلٌ سرّيّ، يمتدُّ ليُحيطَ الكرةَ الأرضية كلّها، نحنُ تفاصيلٌ في الأمكنةِ التي نعبُرها، ما فينا كلُّه يُحاوِلُ أن يتَّحِدَ مع التشكيل الكامل للمكان، ولا انصهار، نبقى نحنُّ إلى بقايانا هناك، هناك - اليوم - باتت تعني الوطن المنكوب بين أسوارِ الغُزاة، قلتُ لكُم إنيِّ أحبُّ الطرف الثالث، لا أُشعِلُ النيرانَ، ولا أكتوي بها!!.

البحثُ عن الأمان بعيداً عن حصار جولات الحرب والأوراق الثبوتية، نمشي جميعاً عمر وعبد الرحمن وأنا في زواريب المدينة بحثاً عن مطعمٍ سوريّ، نقتاتُ بهِ، ونُسكِتُ من خلالِهِ آلام الحنين، يُخبِرني عمر أننا سنتعوَّدُ المنفى، كان يتحدّث على مقربة من الوطن، بكل ذلك الألم، وأنا أستمع دون أن أنبس بكلمة واحدة، فقد رصدتُ الأرض حولي مرّات ومرّات، وكأني أنتظر المخبر السّرّيّ، كي يأتي، ليأخذنا، ولكن، في إسطنبول لا مخبراً سرّيّ علينا نحن العابرين إلى اللامكان.

إسطنبول كدمشق، تُخفي وجهها أمام الغرباء، ترفع ثوبها قليلاً قليلاً، ليظهر كاحلها، فترى أنت الغريب بعض البياض، فتنفتن بذاك البهاء، فتنتظرها، وتتحدّث إلى طيفها دون أن تعطيكَ جواباً لكل الوَلَه، ستمرّ لياليها الحزينة السعيدة الماطرة الساخنة الباكية الماجنة، فتشبه نفسكَ في بلادكَ، تلتفتُ، فلا رفيق ولا قريب، ايفيت أفندم، دور تاني شاي أبيه، إكي تاني قهوة سادة، اكشملار،خانم، أبلة، سينيسيفيوورييم، تتعلّم بعض الكلمات، فتلفظها بلهجتكَ السورية، وكأنكَ تستعيد فيها البلاد، إسطنبول لعنة العشق المحرّم، ومتعة اللمسة الأولى والقبلة الأولى والنشوة الأولى والصمت الأوّل، تبحث عن هويّتكَ في شوارعها، فلا تجدها، روحكَ معلّقة

بمدينة أخرى مُغيّبةٌ عنكَ في غياهب الجبال البعيدة، فتنظر للسماء، وتسأل، يا ربّ المُدُن الغريبة: عجِّلْ فَرَجَ مدينتي المُنتَظرة!!.

إسطنبول كتلك المُدُن التي تُشبهها فوراً دون عناء، مهما اكتشفتَ الفوارق والنواقض بينكما، تتورّط فيها، كما تتورّط بقصّة حبّ دون قصد على مقاعد الدراسة، ثمّ تعاني، وتبكي وحيداً، وتبحثُ عنها دون إشارةٍ للرجوع، على رسلكَ، أيّها الغريب عنها، فمن حظّكَ أنكَ مررتَ من جسدها دون أن تتركَ عليكَ بعض آثارها، عندما داهمني ورق الشجر الطائر كقذائف الهاون، أنزلتُ رأسي قليلاً إلى الأرض، وكأنّ المدينة تعطيني درساً في لوعة الحبّ المُبَجَّل المقدّس العظيم، في شوارع إسطنبول الطويلة، لا تسألكَ نفسك هل؟، تسأل لماذا؟ وكيف فقط وقعتَ ها هنا، أنا الهارب من حدود مفتوحة الجبهات دون خوف من الموت، ثمّ تمضي، ليغطّيكَ ورق الشجر الهابط دون المطر، تنظر إلى وجوه السيّاح، يكتشفون أسرار المدينة كصُنّاع الذهب المسبوك ببعض الماس، تنتظر أن ترى تلك الدهشة الأولى على وجوههم الغريبة، وكأنّكَ صرتَ عارفاً بخبايا الشوارع وتقلّباتها العشقية، ثمّ تمضي وحيداً إلى سريركَ، وتبكي .. ثمّ تبكي، ثمّ تبكي.. مكتبة

إسطنبول تُمسك بتلابيب القلب، ولا تُفلتُهُ إلا وأنتَ رافعاً رايتَكَ البيضاء مُستسلماً لكل ما قد تأتي به جعبتها من الحكايا، تفكّر في شوارعها بكلّ ما كان، تتلمّس أفواج القادمين على الخيول، تكاد تسمع صوت صهيلها، تبحث عن مفاتيح المدينة، ولا تجدها، لقد سرقها سائح من بلاد بعيدة، ولا فاتح هنا، كي يعيد أمجاد البلاد التليدة، تمشي وتمشي، تمرّ بالقرب من أماكن، لها أسماء مشابهة لتركيبكَ اللغوي، ولا تحفظها، أكسراي، السلطان أحمد، تقسيم، شارع وطن، طاشكان، تدخل أسواقاً قديمة، تشمّ روائح النبيذ المعتّق في حكاياها، ترسم أحلاماً لليلة،

لا تنام فيها، تعبر جسر البوسفور (الفوسفور كما يسمّيه جدّي)، ثمّ تعود قافلاً وحيداً إلى فندق رخيص الثمن، كي تنام حالماً بصباح جديد، في إسطنبول لزاماً عليكَ أن تنسى صوت طائرات الظالمين وشكل قذائف الهاون والمداهمات الليلية، عليكَ أن تنام ملء عينكَ وقلبكَ باحثاً في يوم جديد عن بقايا قصّة حبّ قبل أن تشرق شمس المدينة، تلتفت إلى صغائر، لا يعرفها إلا أنتَ، الحبّات الزرقاء التي كانت جدّتكَ تضعها تحت قميصكَ في البرد، رائحة الشاي الأحمر الذي تستعيد به جلسة الفطور في بيت أهلكَ، بالقرب من مطر هطل، حجاب على الرأس، لحية هناك، تعويذة لكل الزمن، ثمّ تمضي، وهكذا مضيتُ تاركاً عبد الرحمن وعمر، على أمل اللقاءِ غداً في أكسراي.

قرّرتُ أن أمشي المسافةَ كاملةً من الفاتحِ حتّى شارع الاستقلال. في الحقيقةِ، كنتُ أحاولُ أن أترُكَ أثراً في المكان لا أكثر، كثيرةٌ هي التفاصيل التي جاءتْني مباغتةً على كتف الطريق، وحدها الطريقُ الطويلةُ تمنحنا فسحةً من الوقت، لنحاورَ ذاتنا، إلى أينَ تمضي، من أيِّ النقاط ستكون النهاية، فالبدايةُ غيرُ واضحةُ المعالم دائماً!.

الطريقُ تمتدُّ ومعها كنتُ أستعيد توازني الداخلي لما هو آت، حتّى وصلتُ إلى الشارعِ الفرعي الذي يقعُ فيه الفندق، حيثُ وقفَتْ على بابِهِ فتاةٌ جميلةُ القوامِ والوجه، باغتتْني برغبتِها قضاءَ ليلةٍ مقابلَ عشاءٍ سخيّ، المتعةُ وحدَها تأخُذُ طريقاً واضحة في إسطنبول، حيثُ الموسيقا تُشكِّلُ موجاتِ الكلام المباح، لحظاتٌ قليلةٌ فقط كان آخرِي يُغويني بالتقدُّمِ نحوَها، بينما أناي يبحثُ عن الأوراق المتروكةِ بإهمالٍ على سطحِ الطاولةِ الرخيصة في الفندق الرخيص، هي الليلةُ الأخيرةُ إذاً في إسطنبول، وعليَّ أن أتركَ بين جدران هذه الغرفةِ ما تبقّى من القصّةِ المسكوت عنها، أتناولُ الورقَ، وأبدأ الكتابة.

في معتقل بوكا

أبريل ٢٠٠٣

في بوكا، المعتقل الشهير جنوبي العراق، نصل أخيراً إلى سيّارة عسكرية، يرفعني الجندي، لأصعد لها، لأرى فيها ذلك الشابّ صاحب الوجه السمح جالساً فيها قبلي، يمدّ لي يده، ليساعدني، فيمنعه الجندي، وينهره ألا يفعل ذلك مرّة أخرى. تسير بنا الحافلة، وتتوقّف بعد قليل عند تلك البوّابة الصغيرة التي ترفع العَلَمَ البريطاني، ليصعد جنديّ محاولاً التأكّد من الأرقام الخارجة بناء على ورقة معه مسبقاً.

يتركنا ويهبط بعد أن شعرتُ للحظة أن هناك خطأ ما، فمن المفروض، وبناء على ما حدث، ألا أخرج أبداً من هنا، ولكنَّ القَدَرَ خيَّبَ ظنِّي مرَّةً أخرى.

تنطلق الحافلة من جديد، وتسير بمحاذاة معتقلات متراصّة، بجانب بعضها البعض، وتتوقّف في نهاية المطاف، وقد قارب ثلث الليل الثاني أن ينتصف، تتوقّف عند المعتقل رَقْم ٣، لنهبط، ونجلس على الرمال متأمّلاً الحياة داخل الأسلاك الشائكة.

ربع ساعة أو أقلّ، وتغادر السيّارة التي أحضرتْنا، ويفكّ قيدَنا جنديٌّ مُكلّف بالحراسة، ويفتح باب المعتقل، ليُدخلنا إلى تلك الحياة، لأصبح فيما بعد جزءاً منها بكل ما فيها، قبل أن نلجَ داخل تلك الحياة، يقترب منّي ذلك الشابّ بعد أن لاحظ تعبي وإرهاقي الشديد، قائلاً:

- فريد من الجزائر.

- عبد الله من سورية، أهلاً فريد.

يأخذ بيدي، ويساعدني، فريد شابّ عربي، يكبرني بعقد أو أكثر بقليل، نقتربُ رويداً رويداً من الخيمة الكبيرة والوحيدة، ندخلها، فنجد فيها ما يقارب الأربعمائة شخص ينامون فوق بعضهم بعضاً، وكلهم عراقيون! يقوم شخص بوجهنا مُرحّباً بقدومنا، فقد كانت أشكالنا توحي بأننا لسنا عراقيين!

غريبة هي هذه الحياة، فأيّ قَدَر عظيم حكيم عليم ساقني إلى هنا، لأعرف كيف جرت هذه الحرب التي لم تحدث، يحدث أحياناً أن تكون هناك أشياء لا تتوقّع وجودها في مفكّرتكَ الشخصية، أو وقوعها، وحين تكون، تدرك كم هي مهمّة، وكم هي يجب أن تكون على أولويّاتكَ.

كان هؤلاء الذين رأيتُهم لأوّل يوم لي مع الناس ضمن معتقل بوكا الشهير، كانوا كلهم من العسكريين، يقتربُ منّا الرجل مُعرِّفاً بنفسه:

- أبو حسين عراقيّ.

- فريد من الجزائر.

- عبد الله من سورية.

ألفظ كلمتي الأخيرة، ولا أستطيع الوقوف بعدها، أسقط أرضاً، فيساعدني أبو حسين لاستعادة توازني، وعندما يفقد الأمل، يحملني بين يدَيْه إلى حيث ينام، وسريعاً يُوسّد لي مكاناً، لأستلقي فيه على ظهري، والألم كاد أن يقصف صدري ويُفكّك عظامه، لا أتحدّث معه أبداً ليلتها، فقد كان عليّ أن أنام فقط.

كنتُ بحاجة كبيرة للنوم، لعلّي أنسى جزءاً ممّا حدث خلال ما مضى،

ولكن، عبثاً كانت أصوات الطائرات وقذائف الدبّابات وصورة ذلك الجندي الذي عذّبني وابتسامة النقيب محمّد كلها حاضرة معي، وأنا أنام بين أفراد من الجيش العراقي!

الوقت صباحاً، نفيق مذعورين على أصوات الجنود، يطالبونا بالخروج لاستلام طعام الفطور أو "الريّوك" كما يُطلق عليه العراقيون.

رغيف صغير من الخبز، وقطعة وحيدة من الجبن، ونصف كأس من الشاي، وثلاث سجائر فقط كانت هي وجبة الإفطار كلها، نستلمها سريعاً، ونعود، لنأكل، وبعدها نبدأ الحديث والتعارف مع مَن حولنا،

- على ما يبدو أنك تعبان جداً، يا عبد الله.

يقولها أبو حسين ووجهه تعلوه ابتسامة مطمئنة.

- جداً مرهق.

أسأل أبا حسين مباشرة:

- منذ متى وأنتم هنا؟

- منذ زمن طويل.

- منذ متى، بالضبط؟

- يا سيّدي، تمّ اعتقالنا في الثاني والعشرين من مارس آذار، يقولها وابتسامته لا تفارقه، وكأنه يريد أن يتأكّد أن الرسالة التي أراد أن يوصلها لي قد وصلتْ.

- متى؟

- الثاني والعشرون من مارس آذار، يعني بعد يوم واحد من نشوب الحرب.

- كيف تمّ اعتقالكم وأنتم عسكريّون، كما فهمتُ؟

يبدأ أبو حسين برواية قصّة كلّ مَن كان في الخيمة.

يا مولاي - وهي كلمة كثيراً ما يستخدمها بعض العراقيين - نحن عسكريّون في الجيش العراقي، وكان قسم منّا يرابط في جزيرة الفاو في ميناء أحمد حسن البكر الذي يبعد ما يقارب أقلّ من ثلاثين كيلومتراً عن ميناء أمّ قصر، حيث كان يرابط القسم الثاني منّا، وفي يوم الحادي والعشرين من آذار، أتتنا أوامر بالتراجع إلى ميناء أمّ قصر من جزيرة الفاو، وبالفعل تمّ الانسحاب سريعاً، وهناك تابعنا مهمّتنا بالرباط ضمن الجيش العراقي، وفي صباح اليوم الثاني، أتت أوامر عليا بترك المواقع كلها، والنزول إلى المطعم لتناول الطعام وشرب الشاي، وبالفعل، تمّ ذلك من قِبَل الجميع.

كنّا نشرب الشاي وصدّام حسين يخطب على التلفاز حين دخل جنود أمريكيون مدجّجون بالأسلحة، واعتقلونا، وسيطروا على ميناء أمّ قصر، وأتوا بنا إلى هنا، إلى هذا المكان الذي كان قاعدة عسكرية للجيش العراقي.

- ولكنّ أمّ قصر لم تسقط حتّى إن الصّحّاف؟

يقاطعني بابتسامته قائلاً:

- كلاوات، كلهم كلاوجية، لقد كنّا هنا في أوّل يوم للحرب.

مفارقة غريبة تنفي كلّ ما كان يُروى وسيُروى عن هذه الحرب التي كان فيها طرف واحد فقط: الجيش الأمريكي وقوّات التحالف الغازية.

تعمّقت علاقتي مع أبي حسين الذي كان يروي لي أشياء لا يمكن ذِكْرها عن تلك الفترة الشائكة من تاريخ العراق، لم أسأله عن رتبته، فقد كان يتحدّث بثقة بالغة.

- أسأله ما هي الخطّة التي كانت مرسومة لصدّ الهجوم؟

يتنهّد طويلاً، ودموع مكابرة تترغرغ في عينَيْه، يا بنيّ، أتذكّر صدّام حسين عندما خرج عند الضربة الأولى لبغداد في اليوم الأوّل للحرب.

- نعم، أذكر.

- أتذكر ماذا قال من الشعر؟

- قال:

"أطلق لها السيف، لا خوف ولا وجل

أطلق لها السيف، وليشهد لها زحل"

- ممتاز، هذا البيت كان بمثابة كلمة السّرّ للبدء بتنفيذ الخطّة المحكمة التي لو نُفّذت، لكان حلماً دخول الأمريكيين إلى بلادنا، انظر حولكَ ماذا ترى في الأفق؟

- آبار للنفط - كانت واضحة في الصحراء -.

- هذه الآبار كانت مُلغّمة مهيّأة للانفجار بلحظة أن يقول صدّام حسين ذلك البيت فضلاً عن تفجير ميناء أمّ قصر وزَرْع ألغام على بُعد ما يقارب العشرين كيلومتراً، وبالتالي لو نُفّذَت الخطّة، لاشتعلت النيران، ولم تستطع الطائرات المرور بتاتاً، وكذلك البارجات لا تستطيع الوقوف أصلاً في الميناء، وبالتالي نضمن

أن تستمرّ الحرب على الأقلّ ستّة أشهر، وذلك كله لم يحدث، ودخل الأمريكان بسهولة بالغة.

- لماذا لم يتمّ تنفيذ الخطّة؟

- الخيانة.

يقولها بحسم بالغ، ودموع تنهمر من عينَيْه قائلاً:

- أرجوكَ، لا أريد أن أخوض مرّة أخرى في هذا الموضوع.

- الخيانة، هي العنوان العريض لحرب العراق عام ٢٠٠٣.

- أنتم العرب الذين تركتُم أهلكم وأشغالكم، وأتيتُم إلى هنا للوقوف إلى جانبنا في هذه الحرب جهودكم مشكورة، ونضعها على أعلى رأسنا.

- ولكني طالب في العراق في جامعة بغداد.

- هذا الكلام تقوله لأولئك المحتلّين، أما أنا، فقد عرفتُكَ منذ أوّل لحظة دخلتَ بها إلى هنا، عيناكَ كانتا ترويان كل شيء حتّى دون أن تتكلّم.

أبتسم، ولا أردّ، فقد كان يعرف كل شيء، ويحيط بكل شيء، ولم يسألني ما هي قصّتي!!.

الحياة في المعتقل كئيبة جداً، فلا تعدو عن كونها استيقاظاً في الصباح لاستلام الفطور وجلوس بدون أيّ عمل يُذكَر حتّى الخامسة مساءً، حيث يأتي وقت الغداء الذي يتكوّن من رغيف خبز صغير وصحن من الرّزّ أو التّمن، كما يسمّيه العراقيون وكأس من الشاي فقط، وبعد الغداء، أجلس أنتظر الليل حتّى أنام، وهكذا.

أربعة أيّام أو أكثر على وجودي في المعتقل رَقْم ٣، ولا شيء جديد سوى التعارف على الكثير من الرجال هنا، والذين كادوا أو قاربوا أن يغيّروا نظرتي لهذه الحرب، بسبب كل ما سمعتُه منهم من أسرار عسكرية، ربمّا لم تُروَ إلى يومنا هذا.

سجّاد، أحد الذين جلستُ معهم هناك، روى لي كيف شارك في انتفاضة عام ١٩٩١، وكيف تمّ قَمْعهم وتعذيب مَن تمّت إدانته، وترهيب الذي بقي مشكوكاً فيه، أما هو، فقد كان من كوادر حزب الدعوة مع انضمامه للجيش العراقي، قال لي سجّاد إنه لم يكن يكره صدّام لأجل صدّام، وإنما لكلّ ما اقترفه نظامه من قَتْل واعتقال وحروب ومجازر وحشية مُبدياً حزنه الشديد على ما آلت إليه الأمور والأوضاع، شارحاً وجهة نظره أمام استغرابي.

عبد الله، العراقيون على اختلاف انتماءاتهم واتجاهاتهم، لم يكن يُساورهم شكّ أن العراق سينتصر، ربمّا هذا اليقين أتى من الحملة الإعلامية التي قادها النظام الحاكم وقتها، التي كانت تقوم على فكرة واحدة أن بغداد ستكون مقبرة للغُزاة والطامعين، ولكن الأمور على أرض الواقع اختلفت، ما أدّى إلى سقوط البلاد ومقاطعاتها كأحجار الدومينو الواحدة تلو الأخرى، صدِّقني لو انتصر صدّام حسين في هذه الحرب، لازداد طغياناً وجبروتاً وبُعداً عن الحقّ، ولَتَحَوَّلَ العراق العظيم إلى مملكة للعبيد، وعلى أيّ حال، إني أكره هؤلاء الأجانب، وأرفض وجودهم هنا، وتأكّد أننا سنُخرجهم بالبسطال، وهو تعبير عراقي، يعني الحذاء.

أبتسم عندما أرى الإصرار على النهوض برغم الخسارة، ذات الحديث سيدور بعد عدّة شهور مع ضابط عراقي آخر، ليحكي لي عن معركة المطار التي كانت هي المعركة الفاصلة في الحرب على حدّ تعبيره، بل تعدّاه

القول إنها (أمّ الحواسم)، يومها جزم القول إن بوادر التململ والضعف كانت بادية على قوّات الجيش العراقي والحَرَس الجمهوري في عدّة مُدُن عراقية، وعندما تمّ الإنزال العسكري الأمريكي في مطار صدّام الدولي، امتنع الحَرَس الجمهوري عن المواجهة، ما دفع الرئيس العراقي صدّام حسين إلى قيادة إحدى كتائب الحَرَس بنفسه مستقلاً الدبّابة الأولى بالمواجهة، إلى جانب عدد كبير من المتطوّعين العرب الذين ربمّا نجحوا في صدِّ الهجوم الأوّل، ولكن قوّات التحالف كثّفتْ عملياتها وإنزالاتها الجوّيّة بكثافة وتركيز تزامناً مع إدخال رموز المعارضة التي جيء بها من بلاد العالم كله، والذين أشاعوا خبر مقتل صدّام حسين، فهبطت بعض النفوس التي كانت مندفعة، وانضمّت إلى سيل جارف من القابلين بالوضع الذي سيكون.

كنتُ أسمع ذلك الضابط كما سمعتُ لسجّاد وأبي حسين، ولكلّ روايته عن هذه الحرب، أحاول أن أجد نقاطاً مشتركة بين كل رواية، لأصنع خطّاً واحداً، تسير به الأحداث، لأجد الحقيقة الواضحة التي باتت الآن أني ما أزال قابعاً في المعتقل رَقْم ٣ ضمن سجن بوكا الكبير.

أفيق ذات صباح، لأجد بجانبي شابّاً، ملامحه من بلادي، كان مُصاباً إصابات بالغة، وتظهر عليه علامات التعب والإجهاد، أحاول إيقاظه برفق، يفتح عينيه بعد جهد طويل، وما إن يتكلّم حتّى أتأكّد أنه من بلادي، ومن حلب تحديداً.

ماجد، سطّر البطولة في مواجهة دامية مع الجنود الأمريكيين تحت جسر الشعب في بغداد، ذلك الجسر الذي قال لي ماجد إنهم قصفوه بالطائرات، ما أدّى إلى استشهاد العشرات من الشباب العرب، وأدّى إلى إصابة ماجد.

أعترف أن ماجداً احتلّ حيّزاً كبيراً من قلبي ومشاعري، ربمّا رأيتُ فيه ذلك الأخ الذي افتقدتُه، ثمّ عاد، وكنتُ أحسبه لن يعود.

آلامه تحوّلت جزءاً من آلامي، وحنينه إلى الوطن اندمج مع حنيني حتّى غدا جسداً واحداً، ربمّا لم أجد متّسعاً من الوقت فيما مضى لأقول له: كم أنا معجب به، وكم أحببتُه بصدق ذلك البطل.

أذكر تماماً كيف كنتُ أخدمه وأساعده في طعامه وحمّامه وتبديل ملابسه، لأنه لم يكن يقوَ على القيام بأموره الخاصّة، ماجد سيخرج قبلي بفترة تقارب الشهر، أو أكثر، وكم سيبكي عندما يودّعني صارخاً: أنتَ أخي.

ربمّا كان وجوده إلى جانب فريد وأبي حسين وبعض الرجال ممّن تعرّفتُ عليهم سبباً في تذليل السجن، وإزالة قسوته في فترته الأولى.

يمرّ أسبوع على وجودنا في المعتقل رَقْم ٣، وذات مساء، يقف الجنديّ الذي يتولى حراسة هذا الجزء من المعتقل، ليطلب أرقاماً معيّنة لترحيلهم إلى معتقل آخر، كانت تلك الأرقام أنا وماجداً وفريداً، وحان وقت الرحيل سريعاً، أودّع زوايا المعتقل والخيمة الكبيرة وتلك الوجوه من أبناء الجيش العراقي، فلن أراهم مطلقاً بعد ذلك.

تعود القيود إلى يدَيّ، والسّيّارة العسكرية بانتظاري، ولكن، هذه المرّة بحمولة أكبر، نقطع معتقَلَين أو أكثر، وتتوقّف السيّارة، ونهبط منها، لنجد مكاناً آخر، ومعتقلين آخرين بنكهة أخرى.

عراقيون، ولكن، ليسوا عسكريين، عراقيون من مُدُن مختلفة، يجمعهم أمر واحد، وتفرّقهم أمور كثيرة، لكل واحد منهم قصّة مختلفة عن الآخر، وبالطبع هناك وقت كافٍ لإبراز بطولاتهم، وكيف أنهم فعلوا وفعلوا وفعلوا.

الغريب في الأمر أنهم كانوا يتقاتلون على كل شيء بدءاً من الطعام القليل أصلاً، وصولاً إلى الاستحمام الذي لم يكن يُسمَح لنا به إلا كل أسبوع مرّة، تمضي فترة أخرى، ويعود مسلسل التحقيق مرّة أخرى، ولكن، كان بطريقة أخرى مختلفة - في أغلب الأحيان - عن كل ما عرفتُه.

بالرغم من الذّلّ والمهانة والانكسار كانوا دائماً يسعون إلى قتل العفّة والطهارة والكرامة في نفوسنا العربية الأبية، كأن يجعلونا مثلاً نتعرّى أمام بعضنا بعضاً، أو نقضي حاجتنا الإنسانية على مَرأى من العيون كلها.

التفاصيل مزعجة ومؤلمة حدّ التدمير، وبالرغم من ذلك كله، كانوا يشغلونا دائماً بموعد جديد، للخروج ونحن ننتظر، والعراق ما يزال يُستباح.

شهر أو أكثر، وتبدأ وفود من المنظّمة الدولية للصليب الأحمر بزيارة المعتقل، وتسجيل الموجودين فيه، في أوّل زيارة لهم، طمأنونا على أن المنظّمة لا تدّخر جهداً في الضغط لإطلاق سراحنا، ولكن الولايات المتحدة الأمريكية لا ينفع معها الضغط، بالرغم من أن بوش أعلن في وقت سابق عن انتهاء العمليات العسكرية الكبرى في العراق، وترك الباب مفتوحاً للحرب ضدّ ما يُسمّى الإرهاب، ونحن - على الأغلب - كنّا معتقلين تحت هذا البند.

الضغط يستمرّ من الجنود على الجميع، وبدؤوا يميّزون بين المعتقلين كلهم، والعرب كان لهم مكان محدّد في المعتقل رَقْم ٥ الخاصّ بالمجرمين الكبار، والذي يتّخذ مكاناً متطرّفاً منفرداً في معتقل بوكا، يضيف ذلك الموقع إلى تميّزه تميّزاً آخر.

المعتقل رَقْم ٥ سيظلّ في ذاكرتي شرخاً نوعياً كبيراً بين مرحلتَين أساسيتَين في مسيرتي، الأولى هي الطفولة والمراهقة واللامسؤولية،

والثانية هي النضوج الذي بات يقبع لي في كل حبّة من حبّات الرمل في هذا المكان البائس مع أني لم أكن أتجاوز العشرين بعد.

يمضي شهران أو أكثر، والحياة بدأت تبدو طبيعية، والأيّام تمرّ، والتفاصيل الصغيرة لا تهمّ، فكل شيء مستمرّ، والوجبات على حالها لم تتغيّر، ممّا أدّى إلى ظهور الأمراض في أجساد الكثيرين كالقرحة المعدية، والتهابات الأمعاء، وسوء التغذية، وغير ذلك، ممّا يدمّر جسد الإنسان.

المعتقل رَقْم ٥ معتقل كبير جداً، يضمّ ما يقارب الخمس عشرة خيمة، كلها مفتوحة من الاتجاهات كلها، ومكان مفتوح مكشوف لقضاء الحاجة، وزاوية مفصولة بسلك شائك داخلي غير الذي يحيط المعتقل بارتفاع، يتجاوز المترَيْن أو أكثر، ذلك المكان كان لحصرنا مرّات عديدة في اليوم لإدخال الكلاب الشرسة، وإطلاقها علينا، فضلاً عن أنه مكان لاستلام الطعام.

بيريرا، اسم الحارس الأشهر والأكثر لؤماً وكرهاً لنا، اسم لم يفارق ذاكرتي بتاتاً وصورته الشرسة ما تزال قابعة في خبايا دماغي، لا تزيحها تلك الصور المتتابعة كلها من وجوه الحرّاس المختلفة، بيريرا، كان يدخل بيننا يضرب يميناً ويساراً، يسبّ ويشتم ويلعن، ويُعلن انتصاره في النهاية.

بيريرا، كان دائماً يمنع عنا الشاي أو السجائر الثلاث في كل وجبة إمعاناً في ذلّنا وكسرنا دائماً. كان يقف في باب المعتقل الكبير، ليطلب أرقاماً عدّة، وما إن يحضروا حتّى يطلب منهم الانصراف بعد أن يُجلسهم قليلاً على الرمال، ويُمعن في ذلهم، وقد كنتُ مرّات عدّة بين أولئك الذين طلبهم.

بداية جديدة وخطوة أولى لمعرفة العرب عن قرب أكثر، الخيام تتوزّع،

ويتوزّع معها كل أولئك الذين جاؤوا إلى هذه البلاد بأحلام وآمال كثيرة، من سورية وفلسطين ولبنان والأردن ومصر واليمن والسعودية والجزائر وليبيا وتونس والمغرب والسودان والصومال والهند وتركيا وماليزيا وإيران.

كل يوم أمشي في هذا المعتقل الرهيب، أمشي فيه بحثاً عن بصيص أمل، يرشدني لحُرّيّة بعيدة، لا أستطيع الوصول إليها أبداً، أمشي أنظر في هذا المكان الواسع الكبير ذي الحراسة المشدّدة من كل جانب، فها هي أبراج المراقبة من كلّ جانب، وها هو الطَّوْق الأمني المضروب حولنا يكاد يخنقنا، ويقتلنا.

العمّ أبو أشرف، نجاح عبد الرحمن العويش، السفير الفلسطيني في بغداد إبّان سقوط النظام الحاكم، وصل إلى هنا منذ فترة بعد أن قضى في أبي غريب أكثر من ستّة شهور، لا يدري سبب اعتقاله، فقد كان ذاهباً إلى مبنى السفارة صباح الحادي عشر من أبريل نيسان للاطمئنان على الأوضاع فيها، ليُفاجأ بأولئك العسكر الذين سيطروا على كل شيء، وكانوا بانتظار وصوله لاعتقاله مع موظّفي السفارة.

كانت تربطني به علاقة وطيدة، أحسستُ أنها علاقة الأب بابنه، كان يروي لي تفاصيل الحروب العراقية المتعدّدة، يتحدّث عن علاقات صدّام حسين الذي التقى معه أكثر من مرّة، علاقاته مع الخارج، وكيف ولماذا ولأجل مَن سقط صدّام حسين؟

ذات يوم، والحزن قد تملّك منه اشتياقاً لابنته التي تصغرني بعام، ذلك اليوم بكى لاعناً هذا الزمن الرديء الذي لا يحظى الدبلوماسي فيه باحترام العسكر.

العمّ أبو أشرف شخصية فريدة استثنائية مختلفة عن كلّ مَن عرفتُ،

كان يدرك أو يستشعر الأمور قبل حدوثها، فاهماً للتاريخ كيف جرى، وأين سيتّجه بأحداثه غير المتوقّعة.

العمّ أبو أشرف كان جازماً بأن الذي أصدر قرار اعتقاله ونفّذه هم اليهود، وسط هذا الدمار كله، كان ثمّة مساحة للحديث عن الحبّ، فروى لي كيف أحبّ زوجته، وكيف ارتبط بها، وكيف تحدّث لها ذات يوم منذ ما يقارب العقد أو أكثر عن كلّ ما يحدث معه الآن.

التاسع من يوليو من عام ٢٠٠٣.

الوقت ليلاً، وصفو المكان يعكّره أولئك العلوج المنتشرون في كل مكان حولنا، كنتُ أجلس مع بعض الرفاق الذين يكبرونني بعقدَين أو أكثر، على أضواء أشعّة X المزعجة التي تخترق الجسد، وتجعله مميّزاً في ذلك الظلام الحالك.

أحدّثهم عن مدينتي وعن حياتي واهتماماتي وطموحي الكبير الذي سيبدأ بالظهور، بمجرّد الخروج من هنا، عن حبّي الأوحد الذي يسافر في دورتي الدموية دون هدوء، عن ذلك القمر الذي أكلّفه كل يوم بنقل السلام إلى أولئك البعيدين عنّي، ويقول لي العم أبو أشرف: ستسمع أخباراً طيّبة قريباً!

لا أكترث لذلك الكلام الذي لم أتوقّع أن يتآمر معه القَدَر لتحقيقه، بمجرّد أن يكون الصباح، أنام ليلتها حالماً بأخبار طيّبة، ستأتي على جناح ذلك الليل المسافر في أغلب بلاد العرب، وصوت أمّي ما يزال يرنّ في أذني:

" لا تخفْ، يا ولدي، أنتَ الأعلى".

وكان الصباح، صوت بيربرا الكريه يأتي من البوّابة البعيدة القريبة،

ليطلب رَقْمي مع بعض الأرقام الأخرى، أتقدّم منه، ولا أعرف أين يمضي بي، كنتُ أتوقّع أن يكون تحقيقاً جديداً.

السيّارة تشقّ طريقها والقيد في يدَيّ، وسط حراسة رهيبة، بعد قليل، تتوقّف السيّارة، لتُنزل مَن كان فيها، باستثنائي، فأبقى وحيداً، وذلك ما يثير توتّري وتساؤلي: أيُعقل أن يتمّ ترحيلي إلى مكان آخر؟ إلى غوانتانامو مثلاً؟ الاحتمالات كلها واردة، فهؤلاء الأوغاد الغزاة لا يُؤمَن جانبهم مطلقاً.

يُنزلني عسكريّ بعنف، ويُسلّمني لآخر، والذي يجرّني بطريقة مزعجة، ليوصلني إلى طابور من الشبّان والرجال الذين اتّخذوا من الرمال مَجلساً، فآخذ لنفسي مكاناً في القاطرة الأخيرة على تلك الرمال الملتهبة.

لحظات ويأتي عسكريّ، ينظر إلى رَقْمي، ويطلب منّي النهوض، ليأخذني إلى مكان آخر، ومنه يقودني جنديّ جديد إلى خيمة واسعة كبيرة، فيها كثير من الجنود، اصطفّوا على الجهة اليمنى، أدخل والتوتّر تملّكَ منّي، فأصبحتُ على حافة الانهيار، يطلب منّي أحدهم الجلوس على كرسيّ، فأجلس بانتظار قَدَري.

يحدث لكَ أحياناً أن تتعرّض لمراحل عديدة حتّى تصل إلى حيث تريد، وربّما دون إرادة منكَ، تقع تلك المستويات المرحلية، لتُهيِّئَك لقبول الأفضل، لا أعرف حقيقة أيّ حماقة أوصلتني إلى هنا، لأجلس على كرسيّ) في تلك الخيمة الكبيرة، لأتذكّر ما حدث معي كله خلال خمس دقائق، وأحاول أن أتوقّع ماذا سيحدث معي، وأين تمضي بي تلك الباخرة التي على ما يبدو أنها لن ترسو.

بيني وبين الجنود على الضفّة اليمنى ما يقارب مترين ونصف المتر، وموت ينبت في الفراغ، وصورة لأشخاص مرّوا بي، ومررتُ بهم.

ها هو حميد المغربي يعود أمامي وأمامهم طيفاً، أرسمه، لأسأله أين كان؟ وماذا فعل؟ أعود لأسأله عن إيطاليا ورحلة البحر العظيمة؟ عن ليبيا وبحرها وبشرها وشجرها ومعسكرات الهجرة؟ أسأله عن الأردن والمخيّم؟ عن ثرى جدّه الأوّل المدفون في القدس؟ أسأله عن صحراء المغرب وكازابلانكا والعلاقة مع الجزائر؟

ولكنه يدخل حزب الصمت، ولا يجيب، ويتركني وحيداً، لأرى أسئلتي فقط!

إلى اليسار قليلاً منه، يبرز علّام التونسي، يلبس الأبيض بعد أن لبست البلاد ثوبها الأسود، أحرّك يدَيّ باتجاهه، فيبتعد طيفه أكثر، وأزداد إحباطاً، أريد سؤاله عن الحياة هناك بلا حروب ولا دماء ولا نفاق ولا حلم بالثورة للتغيير، وها هم المهزومون من كل مكان وحدب وصوب، المهزومون والمعطوبون والخاسرون والمحاصرون يأتون كطيف يزور شاعراً جاهلياً، يجلس أمام نار بقلب الليل، ثمّ يذهبون، كما يذهب الطيف، ويبقى الليل والنار تأكله وتأكلني.

تداعيات الأفكار تخترقني، وتُتعبني، وكل لحظة يأتيني جنديّ، ليتأكّد من رَقْمي، ليُبرَر سبب وجودي في هذا المكان، ووحدي فقط كنتُ لا أعلم سبب وجودي حتّى حدثت المعجزة، وظهر هو.

ألمحه في ذلك الضباب وتلك الغشاوة التي سيطرت على عينيّ، ألمحه، فأقول في نفسي إن التعب قد انتابني، فلم أعد أميِّز ماهية الأشياء، فما الذي يأتي به هو إلى هنا، ليلتقي معي أنا؟!

قطعاً ليس هو، لحظة انكسار انتابتْني، لألفّ رأسي مرّة أخرى تجاه ذلك الطيف الذي بدأ يظهر من بعيد، أضرب بيدَيّ على ركبتَيّ، لأتأكّد أني لستُ في حلم، حتماً لستُ في حلم، إنها حقيقة، ووجوده هنا بات

حقيقة على أرض الواقع، كما وجودي هنا حقيقة لا يُغيّرها ما تغيّر في المكان والزمان.

إنّه هو، يظهر كاملاً من بعيد، ويتحوّل ذلك الطيف إلى وجود، لتذهب الألوان كلها، وتنحسر في لون واحد، يمكنني اختزاله فيه هو،

إنه هو، عمّي الحبيب عبد الستّار "أبو محمّد"، أقوم من مكاني واقفاً، لأركض نحوه بهمومي وآلامي وأوجاعي كلها، لأرتمي بين يديه المفتوحتين لاستقبالي، كما كانتا مفتوحتين لوداعي عندما خرجتُ في رحلتي.

عمّي، لستُ بصدد أن أمجّده أو أعطيه أكثر من حقّه، بقدر ما أحاول أن أقول ما حدث كله، بتفاصيله كلّها، عمّي، رجل مختلف عن الرجال كلهم الذين عرفتُهم، والذين سأعرفهم، وقطعاً هو أفضل مَن عرفتُ، ومَن سأعرف، يأتي من بلاد السلام إلى بلاد الحرب والدمار.

يركب المخاطر، ليرى الفارس ذاته الذي رأيتُه أكثر من مرّة، هي رجولة فذّة أن يُغامر ويأتي إلى هنا، إلى الموت بقَدَمَين صلبتَين صامدتَين، لا يؤثّر فيهما ذلك الوجود العسكريّ الأجنبيّ، وربمّا له قصّة أخرى، لم يروها بعد عن تلك الرحلة التي أعادت لي الروح بعد أن قاربتْ على الوقوع في جرف هارٍ إلى الهاوية.

زيارة سريعة في ذلك اليوم أعطتْني إشعاراً بالحياة لا أكثر، فهل أستحقّ منه تلك المغامرة بروحه، ليأتي إلى هنا، زيارة سريعة بإشراف الصليب الأحمر الدولي جعلتْني أكثر صلابة وأكثر صمتاً عن البوح، ففي مثل هذه المواقف يكون الصمت أكبر، ويكون الصمت أجمل، ويكون أعظم.

الحرب في كل مكان، وهو هنا، تتكرّر الزيارة للمرّة الأخيرة في اليوم التالي، لأتحدّث مع أهلي عبره هو، ليكون كما كان دوماً جسر الوصال بين كل شيء.

لقاء طويل برفقة جنديّ أمريكيّ، نتحدّث في كل شيء، وعن كل شيء، ولكل شيء، وينتهي اللقاء كما بدأ بعد أن أُعطيه لوحة، صنعتُها بنفسي في ذلك المعتقل السيّئ السمعة، لوحة كتبتُ فيها:

"لا أهاب الموت حبّاً بالحياة، ولكن، خوفاً على دمع أمّي".

أسأل نفسي بعد أن أعود وحيداً إلى المعتقل بكل ما فيّ من آلام وأحزان، أتراه سيصل إلى الوطن بعد أن يمضي في هذا المجهول، سأبقى حبيساً لتلك الفترة حتّى يأتي مندوب الصليب الأحمر برسالة منه، كتبها بعد أن وصل إلى البلاد، فأتنهّد الصعداء يومها قائلاً، شكراً لكَ، يا عمّي، شكراً على كل شيء.

الحياة صعبة جداً في المعتقل، ولا أريد أن أدخل في تفاصيلها، فكثيرة هي الإضرابات التي قمنا بها احتجاجاً على اعتقالنا، وكم إضراب عقدناه لتحسين أوضاعنا بعد أن فقدنا الأمل بالخروج، ولكن، كلها كانت عبثاً، ذهبتْ مع تلك العواصف التي كانت تضرب المعتقل كل يومَين أو أقلّ.

دخولي في التيه الذي تمثّله جلسات التحقيق المتكرّرة باتت مُعادة بعد أن عرضتُ ما جرى لي في القسم الإنكليزي من معتقل بوكا.

ذلك كله وأكثر كنّا نتعرّض له يومياً مع وعود دائمة بالإفراج القريب، ولكن، لا شيء يبدو في الأفق حتّى قال بيريرا ذات يوم:

."Happy Ramadan"

رمضان سعيد، كنّا على بعدَ أكثر من شهرَين من رمضان، وهذا يعني أن وجودنا سيستمرّ إلى ما بعد رمضان، وكان علينا الصبر، لا أكثر.

أذكر تماماً أنه قبل رمضان بما يقارب العشرة أيّام، طلبوا منّا الاجتماع،

وكان الوقت قد قارب الدخول على منتصف الليل، دبّ الجند يومها فوق الرمال دخولاً سريعاً إلى المعتقل لتفتيش الخيام، وقلبها رأساً على عقب، وقبل ذلك، كانوا قد أطلقوا كلابهم الكبيرة تجاهنا، لتعيث بيننا، فنهرب منها كموج البحر يميناً ويسرة، والكلاب لا تتركنا وسط ضحكات الجنود الذين يتمتّعون بذلك المنظر الذي ربمّا سينقلونه إلى بلادهم.

هذا المشهد الذي ينتهك أبسط حقوق الإنسان التي لا يعترف بها الجيش الأمريكي تكرّر مرّات عديدة خاصّة عندما كان يهبط الضباب الشديد الذي لا يستطيع المرء أن يرى صديقه الذي بجانبه، أو حتّى لا يستطيع أن يرى كَفَّ يده لشدّة الضباب، مع ذلك كله، نحاول الصبر بحثاً عن فسحة الأمل.

أتى رمضان، كان علينا أن نتأقلم مع شدّة الحَرّ، وصعوبة الصيام في ذلك المكان، خاصّة أن الجنود لم يتركونا وشأننا، فصدر أمر بنقلنا في اليوم الأوّل من رمضان إلى مكان آخر، يبعد عن المعتقل رَقْم ٥ ما يقارب الأربعة كيلومترات، وكان علينا أن نفكّ خيامنا، ونحملها حملاً، ونمضي مشياً على الأقدام تلك المسافة على الرمال، وسط حراسة مشدّدة، وما إن نصل إلى منزلنا الجديد، ونبني الخيام حتّى يصدر أمر جديد، بإعادتنا إلى المكان الأوّل، وتكرّرت هذه العملية أكثر من مرّة.

الحياة في رمضان لم تختلف في صعوبتها عن باقي الفترة، باستثناء وجبات الطعام التي تمّ دمجها في وجبة واحدة قبل الإفطار بحوالي الساعة تقريباً، كنتُ أستلم رغيفَين من الخبز، وصحناً من الرّزّ، وقطعة واحدة من الجبن، وخمس تمرات، وكأساً من الشاي فقط.

وجبة استمرّت مدى ثلاثين يوماً في رمضان، وبعد انتهاء الشهر الكريم،

عادت الأمور إلى طبيعتها الأولى بدون التمر، كان المعتقل يعجّ بالناس، وما يزال ربمّا كذلك، وكنتُ رَقْماً بين تلك الأرقام كلها. انتهى رمضان، وأتى العيد، وعيد، بأيّ حال عدتَ، يا عيد.

إنه العيد الأوّل الذي أقضيه بعيداً عن أهلي، وعن تقاليد العيد في مدينتي الحبيبة، فيا أهلي، ويا مدينتي، ويا كلّ مَن أحببتُ "كل عام وأنتُم سالمون".

جولة تحقيقات جديدة بعد العيد، أعادتْني تلك الجولة إلى الخانة الأولى التي كنتُ فيها عندما وصلتُ إلى هذا المكان، يسألون عن قصّة، مضى عليها أكثر من ستّة شهور، ولكن الغريب هذه المرّة أن هناك محكمة يخضع لها المعتقل، وكان دوري بالدخول إلى المحكمة.

خيمة كبيرة، وطاولة يجلس وراءها ثلاثة ضبّاط، بجانبهم شخص منفرد، هو المدّعي العامّ للمحكمة، ومترجم من إحدى الدول العربية، أدخل، فيتمّ تعريفي بهم، وأوراقي بين أيديهم تعرّيني أمامهم، وتفضح هويّتي، وأقوالي.

يطلب منّي الضابط القاضي النهوض لأداء القَسَم على القرآن الكريم الموضوع أصلاً على طاولة تفصلني عنهم.

يقول المترجم العربي، وأردّد وراءه:

"أقسم بالله العظيم الذي أنزل القرآن الكريم، وبعث محمّداً بالحقّ، أن أقول الحقيقة كاملة، بغير زيادة ولا نقصان، الحقيقة، ولا شيء غير الحقيقة".

أنتهي من الكلمة الأخيرة، وأجلس أتأمّل تلك المحكمة، وذلك العَلَم الأمريكي الكبير الذي احتلّ واجهة الخيمة خلفهم، كما استباح العراقَ كله، يقطع تأمّلي ذلك الضابط القاضي، ويبدأ مشوار الألف ميل الذي يبدأ بسؤال واحد، وأعود معه لمراوغتي وعبثي، والمترجم العربي كل

لحظة يذكّرني بأني أقسمتُ يميناً غموساً، ستذهب بي إلى الجحيم، إن لم أقل الحقيقة.

ساعة أو أكثر يحاول ذلك الضابط أن ينتزع منّي اعترافاً، لا سبيل له إليه، وينتهي التحقيق الأخير بعد أن أتعبَني، وجاء وقت النطق بالحكم بعد ربع ساعة من السؤال الأخير.

طُلب منّي الوقوف لسماع الحكم وقت تلاوته.

- أنتَ المعتقل رَقْم (١٠٦٣٨٤). لقد تبيّن بعد التحقيقات المطوّلة والتقارير الاستخباراتية التي جمعنا من خلالها معلومات حولكَ، لقد تبيّن أنكَ وقفتَ وعرقلتَ دخول قوّات التحالف المشتركة، بما فيها قوّات الجيش الأمريكي إلى العراق لنشر الحُرّيّة والديمقراطية، ولقد أثبتْنا أن يديكَ ملطّختان بدماء جنودنا، لذا، يجب الاحتفاظ بكَ لوقت أكثر عندنا.

انتهى المترجم من نقل ذلك الكلام إلى مسامعي، ومع الكلمة الأخيرة، ضحكتُ بصوت عالٍ قائلاً لهم: الجيش العراقي كله لم يُعرقل تقدّمكم، وأنا عرقلتُ تقدّمكم في أراضي العراق!! عندما سمع الضابط القاضي تلك الكلمات، طلب منّي الوقوف والانصراف مباشرة، وكان ذلك.

لقد انتهت المحكمة الهزلية بين طَرَفَين، كل منهما يتّهم الآخر بالإرهاب والعدوانية وغير الشرعية، أعود إلى المعتقل، وكل مَن فيه يملك قصّة عن تلك المحكمة.

بعدها بأسبوع أو أكثر، جاء ضابط أمريكي كبير، يحمل أوراقاً، تصنّف المعتقلين العرب تصنيفَين اثنَين، لا ثالث لهما، وهما:

الأوّل: EPW والذي يعني "Enemy Prisoner of War" أسير حرب معادياً.

والثاني: C P والذي يعني"Civilian "Prisoner، أسيراً مَدَنياً.

لم نكن نعرف الفرق بينهما حتّى أتى ضابط آخر، ليبيّن معناهما:

فالتصنيف الأوّل: يعني أنك حملتَ السلاح، وقاتلتَ ضدّ القوّات الأمريكية، وأنت شخص عسكريّ، يجب إطلاق سراحكَ، بمجرّد انتهاء الحرب.

أما الثاني: فيعني أنكَ معتقل مَدَني، حملتَ السلاح ضدّ القوّات الأمريكية، وأنتَ لا تنتمي إلى أيّ مؤسسة عسكرية، وهذا يعني أنكَ من الممكن أن تكون منتمياً إلى أحد التنظيمات الأخرى المحظورة بالنسبة لهم، كالقاعدة مثلاً.

لا أعرف حقيقة ما هي المقاييس التي وضعوها لهذا التصنيف الغريب، والذي يثير الاندهاش أنه كان معنا في المعتقل توأم حقيقي من تونس حسن وحسين، الأوّل كان EPW والآخر CP.

هنا نستطيع أن ندرك مباشرة تلك الدوّامة التي حاول الأمريكيون زجّنا فيها، لشغلنا عن المطالبة الدائمة بإطلاق السراح.

يقترب العام الجديد من القدوم، والأيّام الأخيرة من عام ٢٠٠٣ تمرّ سريعة ككلّ المداهمات التي تتمّ كل ليلة، وكسرعة ذلك الرصاص المطّاطي الذي كان يُطلقه الجنود في الأبراج الخشبية العالية المنتشرة حول المعتقل على كل مَن يتحرّك بعد العاشرة ليلاً، حتّى وإن كان إلى قضاء الحاجة التي كان معظمنا ينتظر الليل لأجلها، ربمّا خجلاً من بعضنا البعض، لأن قضاء الحاجة كان يتمّ على مَرأى من الجميع. مكتبة

يقترب العام الجديد، وتأتي سيّارة فارهة النوعية والعمر واللون، لتسلّم إلى الحارس الشقيّ لوحة ببعض الأرقام، جاوزت ثلثنا تقريباً، طالباً منه أن يجهّز هذه الأرقام، لأنها سترحل، إلى أين؟ لا أحد يعرف.

يقرأ كاسيوس ذلك الحارس اليهودي الذي كان يمارس علينا شتّى أنواع العنصرية، ومع ذلك، يتّهمنا بأننا أعداء للسامية، يقرأ الأرقام، ويجتمع الناس كلهم أمام البوّابة.

تنتهي الأرقام، ولا يأتي رَقْمي ضمنهم أبداً، يطلب منهم إحضار أغراضهم الخاصة كاملة، فعليهم الرحيل.

حالة من التوتّر الرهيب تنتاب كل حبّة رمل في المعتقل، فكل مَن فيه لا يعرف أين يمضي به القَدَر، وأين تسير تلك الباخرة الصحراوية التي آن لها أن ترسو، ولو في أيّ ميناء.

نستلم طعام الفطور، ولا أحد يريد أن يأكل، ساعتان أو أكثر تمرّان، ولا أحد يأتي لتوضيح ما يجري، تأتي الظهيرة، وتمضي، وتوتّر غريب انعكس على الجميع، ويأتي المساء، وتقارب الشمس على الغياب، لتشرق في حركة مناقضة للشمس، إنها السيّارة البيضاء التي ترفع عَلَمَ الصليب الأحمر، يهبط منها كارلوس الذي يتكلّم العربية بطلاقة، ليقول ببساطة شديدة، والفرح يملأ عينيه:

- لقد سلّمَنَا الجيش الأمريكي أرقاماً لمعتقلين، سيتمّ إطلاق سراحهم غداً صباحاً، وبمجرّد إخلاء سبيلهم، سنقوم بترحيلهم مباشرة عن أرض العراق إلى بلدانهم.

حالة جنونية من الهستيريا المُفرحة التي تنتاب مَن كان رَقْمه مدرجاً ضمن اللائحة وحالة غبطة لمَنْ هم في حالتي.

يأتي المساء والليل، ولا ينام مُعظم المعتقلين حلماً بالمساء الذي سيأتي وهم بين أهلهم وذويهم، الساعات الأخيرة من الليل تمرّ طويلة، وبعدها يأتي فجر جديد، والكل متأهّب، وتأتي سيّارة الصليب الأحمر.

يتأكّد الجندي من رَقْم كل معتقل، ويسلّمه إلى فرقة حراسة جاهزة لاصطحابه إلى مكان آخر ،ويبدأ المسير، نودّعهم كلهم بكل حبّ وفرح وحزن، ها هو ماجد يهمّ بالخروج وعيناه تحكيان قصّة كبيرة عن كل ما قاساه في أرض العراق، ها هم كلهم يمضون كرتل واحد وسط حراسة شديدة، وسيّارة الصليب الأحمر تمشي خلفهم ببطء شديد، وكأنها تدفعهم أمامها، تريد استعجالهم، لتخلّصهم من آلامهم كلهم.

نرقبهم حتّى يختفوا، وتبقى لنا أطيافهم، ومكان مرّوا فيه من هنا، لقد مضوا وصاروا تاريخاً، وصار هذا المكان جزءاً من تاريخهم، لقد مضوا، وبقينا نحن، وقصص رووها لنا عن حرب، كانوا طرفاً فيها، وفقط.

تحين الظهيرة، ويطلبون منّا الاجتماع لإبلاغنا بضرورة نقلنا إلى مكان آخر، حيث صدر أمر بفكّ الخيام، ونقلها، وبالطبع باعتبار أن العدد قد نقص، لن نأخذ الخيام كلها.

سريعاً نفكّ الخيام، ونمضي في مسيرة جديدة، مُتيقّنين أن لا إفراج قريب لنا، المعتقل رَقْم ١ الأقرب إلى القيادة، لنبقى تحت أنظارهم دائماً، أذكر تماماً يومها ما حدث، فقد تغيّرت الحراسة، ومَن ألفنا طباعه ذَهَبَ ولن يعود، وأتوا بغيره أشدّ حزماً ووطأة وكرهاً لنا.

خلال هذه الفترة المتبقّية مارسوا علينا شتّى أنواع التعذيب النفسي، كأن نبقى بلا طعام لمدّة يوم كامل، أو بدون ماء لأيّام متعدّدة فضلاً

عن مَنعنا من الاستحمام لفترات طويلة، ومداهمة الخيام بشكل مستمرّ، وإدخال الكلاب الغريبة الأشكال والطباع.

هي فترة عصيبة، بالإضافة إلى إخضاعنا للتحقيق مرّة أخرى، وإحضار نزلاء جدد، لينضمّوا لنا، ففقدنا كل أمل بالخروج في المدى القريب.

على شاطيء بحر إيجة

وقائع في بودروم

الصباحُ يوشكُ على مداهمتي، وها هي خطواتي تعبرُ الممرّات الضيّقة من شارع الاستقلال وصولاً إلى غلطة سراي، حيثُ ينتظرني عبد الرحمن وعمر، أحملُ على ظهري حقيبتي الصغيرة، في هذه الرحلات، نختصرُ أشياءَنا إلى الأقلّ، حيثُ الحياةُ تغدو حقيقةً لا مجازاً هي عبور البحر من ضفّةٍ إلى أخرى، ذلكَ العبور الذي كان هاجسي، لا مناصَ من قطعِهِ أبداً، أتذكّرُ أوراقي البيضاء، وأنا أنزوي في ركنٍ قصيٍّ في الباص الطويل الذي سيقطعُ بنا المسافةَ كلها لستّ عشرة ساعةٍ متتالية وصولاً إلى بودروم، لديَّ مُتَّسَعٌ من الوقت، كي أروي ما تبقّى من القصّةِ، قصّة ذلك الشابّ الذي خاضَ حرباً، كان فيها الخاسرَ الوحيد، قضى حرباً، أورثتْهُ خيباتٍ كثيرة، تركَها خلفَهُ لأوّل مرّةٍ على الحدود، تلك الحدود التي تحتضنُ اليوم مجازرَ لا تنتهي، وآلاماً تُدفَنُ مع الجثث المتفسِّخةِ في شوارِعِها، كانت تلك الثورةُ التي أدرنا لها ظهورنا، لنعبر البحر، البحرُ كان أقربَ من الثورةِ لنا! سنبكي مراراً على أسماءَ نقرؤُها في فضاء مفتوح لراحلينَ، لم يتوقّفوا في قافلةِ العمر، ليشهدوا أحلامَهُم، نحن الخاسرين والمهزومين في كل لحظة وعلى الحدود كلها، أولئكَ الراحلون الذين داهموني فجأةً حين غفلتُ مُقفِلاً عينيَّ عن مشاهدِ الجمالِ التي تتمتَّعُ بها المُدُن التركية الممتدّة عبرَ الطريق بين إسطنبول وبودروم، حيثُ وجهتنا الأخيرةُ على اليابسة التركية.

بودروم التركية، لا أعرف أصلاً واضحة للتسمية، ولكن، قيل لي إنها

تعني القبو أو الأرض المنخفضة، تتشابه بودروم كثيراً مع تلك المُدُن التي تعتمد على السياحة الأجنبية والداخلية في كل شيء، عند مدخلها جمع كثيف من الأشجار التي تتمنّى لو أنكَ تقفز بينها، لترمي حمولة الحرب الزائدة كلها بين أغصانها، تلك المناظر للمياه المنتشرة على كتفَيّ الطريق، لوهلةٍ تشعر أنها قادمة من الجنّة الموعودة المُغَيَّبة، في هذه الحرب أيضاً أُجبِر السوريّون على القيام بسياحةٍ حول مُدُن العالم هرباً من الموت، في ذلك الباص الكبير الذي كان يعبّ الشارع الطويل متّجهاً نحو بودروم كانت مَشاهدُ الحرب تخرجُ من بين الأغصان متدفّقةً على شباك الذاكرةِ راسمةً لوحةً أخرى، أحاصرُ الألمَ بداخلي، وأمضي إلى اللامكان، إنَّها طريقُ الآلام الجديدة التي علينا أن نمشيها حتّى النهاية.

ما إن وصلتُ إلى المدينةِ حتّى أدركتُ أنَّها قسمان، الأوّل يقطنُهُ أكابرُ القوم، والآخرُ للمُعدمين الذي فرَضَ عليهم القَدَرُ أن يكونوا أبناء المدينة، بينما وقفَ بينهما العابرون أمثالنا، انتشروا على الطُّرُقات، وفي مداخل الأسواق، على أبواب الجوامع القديمة، وعلى الأرصفة، كان العابرون هم وجهُ المدينةِ الجديد، منذ سنواتٍ، وبودروم تحتفي بهؤلاء، تُلقيهِم للبحر في ظلمةِ الليل، وتُكمِلُ نومَها على الشاطئ، منذ سنوات، وهي تعدُّ العابرين واحداً واحداً، وتتركُهُم بعد أن تُودِّعَهُم بصمتِ الذهول، من عابرٍ وقفَ قليلاً، فتورَّطَ بحبِّ المدينة، نتوقَّفُ في شوارِعِها، أحاولُ أن أبحثَ عن بقاياي هنا، فلا أجد، الأصواتُ العربيةُ تُذكِّرني بأنَّا عابرون، لا أكثر، أتَّصِل بالمُهرِّب، فيخبرني أنَّهُ سيعود للاتصال بي خلال ساعتَين، تمتدّ الساعات، ومعها يخبو الأمل، ويزيدُ الفراغ، نحاولُ أن نجترَّ تاريخنا الشخصي لمَن التقيناهم مصادفةً، كان الجميعُ يحملُ في داخلِهِ كمّاً هائلاً من الفوضى والقصص التي لا تنتهي عن تلك الحرب بين الحدود، في انتظار المُهرِّب لدينا وقتٌ كافٍ لإعادةِ شريط الحياة، هي أصعبُ اللحظات التي تحكي

فيها لعابرين معكَ في رحلةِ البحر عن حياتِكَ، تلك التفاصيل الصغيرةُ التي لا تعنيهِم أبداً، أشياءٌ صغيرةٌ، لا تعنيهم أبداً، ولكنَّها تعني لكَ العُمر كلّه، وحدي توقَّفتُ عند عبد الفتّاح حينَ قال لي إنَّهُ لا يجيدُ السباحة، نهضتُ لفوري أخبر عمر الذي ذهبَ لإحضار سُتَرِ النجاة، ليأتِ بواحدةٍ لعبد الفتّاح.

ساعاتٌ طويلةٌ، حفظتُ خلالَها أسماء العابرين، أو جلَّهُم، أسماءَ أولادِهِم، أماكنَ سَكَنِهِم، تفاصيلَ رحلتهم إلى هنا، المبالغ التي دفعوها، تلك الأشياء كانت تعنيني أكثرَ من الآخرين، ساعةٌ أخرى، وانتصف الليل، رنَّ هاتفي، ليُخبرني المُهرِّبُ أن نتحرّك واحداً واحداً نحو مدخل السوق، حيثُ تنتظرنا سيّارةٌ بيضاء صغيرة، يقف أمامها رجلٌ قصير القامة، كان اسمُهُ أبا خالد، ما إن اقتربنا خمسة خمسة نحوه حتّى أوحى إلينا أن نقتربَ أكثر، فركبنا معهُ مُنحشِرين بقلب السيّارة الصغيرة، تعبٌ بنا الخطوات كحصانٍ جامحٍ تمرّدَ على راكبه، عشرون دقيقة، قادَ بها أبو خالد السيّارةَ كمجنونٍ هاربٍ من حُقنةِ المُهدِّئ، وما إن وصلَ إلى الشاطئ الصخريّ حتّى رمانا جميعاً كمُخلَّفاتِ رحلةٍ بَحْرية، بقيَتْ أيّاماً تحت الشمس، الإعياءُ تمكَّنَ منَّا تماماً، وما هي إلَّا ساعةٌ أو أكثر حتّى توقَّف قاربٌ خشبيّ صغير بين صخرتَين، يقبعُ فيه رجلٌ تركيٌّ، استخدمَ هاتفَهُ النقّال لثوان معدودة قبلَ أن يصيحَ بنا أن نتقدَّمَ نحوَهُ، كان لزاماً علينا أن نخوضَ في البحر قبل أن نصلَ إليه، لحظتَها بدأ الجميعُ يقفزُ بين الصخور، رأيتُ نساءً ورجالاً، لم أرَهُم من قبل، كانوا يُمسِكون الأمل بالنجاة، لحظاتٌ وتوزَّعنا في قلب القارب الصغير، أربعةٌ وعشرون نفراً، أمامنا البحر، وخلفنا الأمل، لحظاتٌ عصيبةٌ أخرى، اقترب التركي من شابٍّ وقفَ في مقدِّمةِ القارب، أخبرهُ بعربية ركيكةٍ آليةَ السيرِ فيه، وهبطَ في مياه البحر الباردة سابحاً عائداً إلى صخور بودروم، كان السائقُ أوهمنا في وقتٍ سابقٍ أنَّهُ خرجَ في الرحلةِ

البَحْرية مرَّاتٍ كثيرة، لنكتشفَ بعد خمسِ دقائقَ أنَّهُ مثلُنا يطمحُ فقط بالوصول إلى الضفَّةِ الأخرى، لحظتها لم يكن يَعنينا الانتقامُ من نذالتِهِ، بقدرِ ما سعَينا للبحثِ عن حلول بعد أن ابتعدَ الشاطئُ عنَّا، وابتلعنا البحر، سمعتُ أصواتَ البكاء بدأت تتعالى، كانت العودةُ مستحيلةً إلى الشاطئ، فقد صرنا في عرض البحر، وتبدو أضواء جزيرة كوس من بعيد، اكتشفنا فيما بعد أنها أضواءُ باخرةٍ، تعبثُ البحر بسبب حركتِها، هنا كان لزاماً أن نفتح الهواتف النقَّالة بعد أوامر إغلاقِها من قِبَل المُهرِّب الذي تركنا على الشاطئ ومضى، اكتشفنا أنَّ القارب يسير بطريقٍ خاطئة، جلس الجميعُ متوثِّبين فوق بعضهم، لا مكان للمستقبل، إنَّهُ الحاضرُ العَبَثي، يقودُ القاربَ واحدٌ من النفرات، ساعةٌ أو أكثر ولا جزيرةَ في الأفق، لقد أخطأ الطريق! تلعن الحظَّ، ولكن، لا مناص هنا، فالبحرُ ككتيبةٍ عسكريةٍ يحاصر المقاتلين، ينفد الوقود، لحظاتٌ أخرى عصيبة، وينقلب القارب، يغوص في الماء، يغيب تماماً، ويبقى الراحلون، يصيحون، يستغيثون، لا أحد، لا أحد، تسع ساعاتٍ متواصلة، أُعيدَ فيها شريطَ العُمرِ مرَّاتٍ ومرَّات، أستنجدُ بكل شيء، أتمسَّكُ بالحياة، بينما فقدَها آخرون، كانوا على متن الرحلة، تسع ساعاتٍ متواصلة، حاصرني البحر فيها، كما حاصرتُ سورية بداخلي، سورية الممتدّةُ حرباً بين الحدود، حاصرتُ سورية المُحاصَرَةُ بالحربِ بداخلي، وحاصرني البحر الكبير، شايف البحر شو كبير، كِبْر البَحْر بْحِبَّكْ، لقد كان البحر أكبر من تصوّراتي السابقة كلّها حينَ أقسمتُ مراراً بالحبّ. في البحر، نستعيدُ خيباتنا العشقية، ونبحثُ عن خيوطَ وَهْميةٍ، تربُطُنا بالسماء، نستدعي الخالقَ العظيم، نبحثُ عن نقاطٍ مُضيئةٍ في ذلك العمر المديد الذي وصلنا في خطواتِهِ إلى النهاية، أنا على مقربةٍ من النهاية، ولا شيء أكثر، البحر يحاصرني، فأهربُ إلى الغيوم، أستنجدُ بطائرةٍ، أراها كنقطةٍ صغيرةٍ في السماء، لا أحد هنا، لا أحد هنا إلا البحر،

واجهوا الموت بشرف، أيها الغارقون، في الحقيقةِ، لا يمكن أن تُواجِه الموت بشرف، الموتُ عدوّ جبانٌ أرعنٌ، يأتي غدراً، ليسرق أجمل اللحظات وأجمل الأشياء التي لم تحدث بعد، يأتي على مهلٍ دون أن يعطيكَ فرصةً، لتقول للّذين تُحبُّهم وداعاً لا لقاء بعده، لا يمكن مواجهة الموت، فهو مُفترسٌ قاتلٌ مُحترِفٌ، لا يترك أحداً وشأنه، كيف لهم أن يواجهوا الموت بشرفٍ وهم هاربون من الموت!، يصيحون واحداً تلو الآخر بأسماء الله الحسنى، أراهُم في عباب البحر منتشرين، لقد غابوا كما كل الغائبين، لتبقى تفاصيلُهُم التي رووها قبل وصول القارب الغارق، أتمايلُ كمطروبٍ بين موجةٍ وأخرى، أحاولُ أن أمسكَ السماء البعيدة، أرى الحقائبَ تنتشرُ بجانبي، حقائبُ الغارقين، بينها حقيبتي التي ضمَّت ذاكرةَ المُعتَقَل، حملتُ أوراقي معي، لتعبر البحر أيضاً، يعودُ الراحلون جميعاً زبداً في الأمواج، ولا أحد، لا أحد إلّا بقايا الوَهْم في الوطن الجديد. تسع ساعاتٍ متواصلة، تكوَّرتُ على جسدي، ورجوتُ الله أن يأخُذني، ولكن، للسماء اختياراتُها، كما الأفلام الغريبة كلّها، يظهرُ قاربٌ من بعيد، لا سبب لوجودهِ هنا سوى رحلةٍ بَحْريةٍ، تقومُ بها عائلةٌ إنكليزية، ظهر اليوم التالي، كُتِبَت لي النجاة عبر حبلٍ، رماهُ العابرون، لأكون بعد قليل على ظهر البحر منتظراً وصول الناجين واحداً واحداً، ولا أحد يروي عمر القصّة الكاملة التي لا نعرفها، ما إن غرِقَ القارب في الظلام حتّى خلعَ عُمر سترةَ النجاةِ، وراحَ يسبحُ تحت الموج، يقاومُ الموجَ بالاحتيال وصولاً بعد تسع ساعاتٍ إلى شاطئ جزيرةِ كوس منتصراً على البحر، ما إن يصلُ عمر حتّى يتلقّفُهُ رجل إنكليزي، فيخبرهُ عمر بالغارقين، ينتفضُ الرجل متَّصلاً بخفر السواحل اليوناني مُخبراً إيّاهُم بوجودِ مفقودين، وبأنَّهُ سيقومُ بإحضارِهِم إلى الجزيرة، يرفضُ الإغريقُ وصول الغرقى مهدِّدين الرجل الإنكليزي بإدخالِهِ السجن في حال قام بالفعل، إنسانيتُهُ تنتصرُ، ويأخذُ قرارَهُ بجَمْعِ الباقين، ساعةٌ أو أكثر، ويبدأ بجمع

الغرقى المنتشرين بين الأمواج، ساعةٌ أخرى، وتصلُ بارجةٌ تركيةٌ، تقلُّنا عائدين إلى مركز الأمنيات في بودروم.

مركز الأمنيات في بودروم مقرّ للاعتقال للخارجين بطريقة غير شرعية، تحقيقات سريعةٍ للناجين من الموت، يومٌ عصيبٌ آخر، يمتدُّ حتّى مطلع الصباح، بلا طعامٍ ولا لباس بعد أن التهمَ البحرُ كلَّ شيء مرَّةً واحدة، بَصَمْتُ بيديَّ كلتيهما، كما آخرين، ألا نعيد الكرَّةَ مرَّةً أخرى، بعد يومين، خرجتُ من مركزِ الأمنيات، ذاكرةٌ جديدةٌ، يكتسبُها السوريّون أينما حلُّوا، ما إن خرجتُ من باب الأمنيات حتّى اتجَهتُ إلى فندق طومان باي في بودروم.

فندقٌ يقعُ على تلَّةٍ مرتفعةٍ، بالقرب من فندق حقَّان الشهير، في ذلك الفندق، أو لأقل إنه الدولة الطارئة الصغيرة التي تختصر الأحلام والآمال كلها بحياة جديدة، ترى كلّ مَن فيها منتقلاً على مهلٍ دون انتظار ما قد يحدث، إنها الحرب التي سبّبت عطباً أبدياً، لا يزول، إنها الحرب التي أثقلتْهم بالقصص كلها التي من الممكن أن تحدث في السجن وخارجه، لولا هذه الحرب، لما مات مَن نُحِبّ، ولكنه قضاء الله، نعم، ربّما سَلِموا إذا كانوا مقاتلين!!!، ترى النزلاء ينظرون إلى كل شيء باهتزاز، إلى كل شيء دون تركيز، هناك إحساسٌ بالعجز، بالشلل، بانتظار المُهرِّب الكاذب الذي ينتقل بين الجميع زارعاً بسمةً هنا أو ضحكة هناك، ليُنسي الناس وعوده بالخروج هذه الليلة،أو التي تليها. جلسنا في الفندق أربعة أيّام متتالية، كانت كافية لأسمع الكثير من القصص التي لا تُعدّ ولا تُحصى عن هذه الحرب، ألم أقل إن كل واحدٍ من النزلاء قصّة كاملة متفرّدة، لا تُشبه غيرها أبداً؟!

في كلِّ خطوةٍ، كنتُ أستشعرُ ملوحةَ البحرِ في جسدي، حاولتُ مراراً الاتصال برفقة وداماس التي عبرتْ جسر الملك حسين باتجاه فلسطين

التاريخية، كانت فلسطينُ أقربَ لابنتي من البحر، تعبرُ هيَ نحوَ الوطنِ السليب، وأعبرُ أنا نحو اللا وطن، مفارقةٌ كبيرةٌ أن أقفَ مراقباً كلَّ ما يحدُث للحظةٍ واحدة، وكأني خارجَ الصورة كلّها، إنّه الجنون الذي أتى بنا ها هنا.
مساءُ السابع عشر من أغسطس لعام ٢٠١٤ تجوَّلَ أبو حاتم المُهرِّب الجديد بين النفرات مخبراً إيّاهم بطريقةٍ بوليسية أنَّ السفر اليوم، انتابني خوفٌ كبيرٌ من البحر، البحرُ الذي غدرنا مرَّةً، واختطفَ من بيننا آخرين، أصابهُم الموت وأخطأنا نحن، محاولةٌ أخرى بالطريقةِ ذاتها، هذه المرةُ كنَّا خمسة وعشرين شخصاً، غاصَ بنا قائدُ المركب الباكستاني ساعتين ونصف في البحر قبل أن يضعنا أمام كتلةٍ صخريَّةٍ مُخبراً إيَّانا أنَّ خلفَها القريةُ اليونانية، وليغيبَ في ظلام الليل والبحر، مع الصباح، سيكتشفُ الراحلون أنَّهُم في تركيا، جزيرةٌ صخريّةٌ صغيرةٌ تقعُ في مواجهةِ بودروم مباشرةً، يلعنون الحظّ، ولكن، لا مفرَّ من العودةِ إلى مركز الأمنيات بعد يومٍ طويلٍ، سيأتي في نهايتِهِ خفر السواحل التركي، ليقلَّهُم إلى مركز الاحتجاز، إجراءاتٌ سريعةٌ تُماثِلُ ما سبقها بأيّامٍ قليلة، ولتليها محاولةٌ ثالثةٌ بعد أيّام أخرى مع مُهرِّبٍ جديد.

فندقُ طومان باي مرّةً أخرى يوم العشرين من آب، صارَ العابرون هنا مثل الأثاث، لم تعد تهمُّني أسماؤهُم وتفاصيلهم، كنتُ وعبد الفتّاح وعمر، ثلاثةٌ نختزل القصةَ كلها، نكتفي بالحديث عندما تتقاطعُ عيوننا، يتحرَّك الجميع، عائلات وشبابٌ وأطفالٌ ونساء، نحو المرسى أمام الشاطئ السياحيّ، حيثُ توقَّفَ يختٌ كبير، هبطَ في قلبِهِ اثنان وخمسون نفراً، كنتُ بينهم مختبئاً بين أرجلِ آخرين، سبعُ ساعاتٍ كاملةٍ، صارعنا الموت فيها، كلّما تمايلَ اليختُ يمنةً ويُسرة، سبعُ ساعاتٍ كاملةٍ مشدود الأعصاب حتّى وصلَ اليختُ إلى ساحلٍ رملي صغير، ترتفعُ في نهايتِهِ سلسلةٌ جبليةٌ، قال لنا السائقُ إنَّ خلفها اليونان، ومضى في ظلام البحر. لا شيء هنا سوى البحر والجبل، صعدنا الجبل، لنكتشفَ سلسلةً لا منتهيةً من الجبال الكبيرة، لقد

وقعنا في الفخِّ الحقيقي مرّةً أخرى، سنموت هنا، صاح الجميعُ، ولكن، لا صدى للصوت، إنَّهُ البحر الكبير، وشَايِف الْبَحْرْ شُو كْبِيْر، كِبْر البَحْر بَحِبَّكْ، ثلاثةُ أيَّام كاملة، قضاها الجميعُ بين السماءِ والأرض، إلى جوار البحر، ولا أحد، قبلَ أن تكتشِفنا سفينةٌ بعيدةٌ، لاحظتْ لهيب النار التي أضرمَها الناجون على الرمل، في صباح اليوم التالي، جاءَ خفر السواحل اليوناني مع قرب انتهاء حياةِ الأطفال، ليُعيدوا ضخَّ المياهِ في دورتِهم الدموية.

كانت الحياةُ تعني أن تأتي السفينةُ من بعيد ظهر اليوم الرابع، لتقلَّ العالقين بين جبلٍ وبحر، كانت الحياةُ تعني قارورةَ ماءٍ صغيرة، السفينةُ كانت تعبّ البحرَ متَّجهةً إلى جزيرةِ تيلوس، إنَّها الحربُ التي دارت رحاها على ساحاتٍ أخرى، هناك تجدُ الانكسار في عيون الهاربين، حالةٌ عَصيَّةٌ على الفَهْم حين تمشي أولى خطواتِكَ باتجاهِ مخفر الشرطةِ اليوناني الصغير في جزيرة تيلوس، يتقدَّمُ الناجون واحداً واحداً للإدلاء ببياناتِهم، ليلةٌ بالقربِ من البحر في أمانٍ من الخوف قبلَ أن نستيقِظَ صباحاً على وقعِ خُطى الشرطةِ، وهم يوزِّعون ورقةَ الطرد "الخارطية" التي ستكون هويَّةً لنا خلال الفترة القادمة، كانت الطريقُ إلى أثينا معبَّدة بالموج، دخلتُها مروراً برودس في الخامس والعشرين من أغسطس بعد رحلةٍ مريرةٍ، استنزفت منِّي الصبر كلّه.

من أثينا إلى بروكسل

أثينا لا تختلفُ كثيراً عن مُدُن الشرق العربي، هكذا انطباعي عنها. اعتدتُ الجلوس في مقاهيها، صارت جزءاً من رحلتي، مناطقُها ذات الأبجدية المختلفةِ في أسمائِها صارت سهلةَ النطقِ عندي، كاتوباتيسيا، آخرنون، كومانيتسا، سالونيك، فكتوريا، أمونيا،ايتيكيه، تلك المناطقُ سترسمُ ملامحَ على وجهي، بدأتُ أرى العابرين، وقد اتخذوا سبيلَهُم في رحلاتٍ غريبةٍ نحو المنافي البعيدة، حاولتُ العبور بأوراقٍ مزوَّرةٍ من المطار الرئيس في أثينا، ومن مطارات الجُزُر البعيدة والقريبة، اعتدتُ الجلوسَ في مقاهي شارع " آخرنون" و" أُمونيا" و"كاتوباتيسيا" و"سانتيغما" و" فكتوريا" قبل أن أهتدي مع آخرين إلى رحلةِ شاحنةٍ بلغاريةٍ، أخفانا سائقُها فوق صندوقِ العدَّةِ بحاجزٍ مُصطَنَعٍ، يفصلُ نهايةَ القاطرةِ عنه بخمسة وخمسين سنتيمتراً، ليمتدَّ على عرضِ الشاحنة، في تلك المسافةِ، جلسَ خمسة عشرَ رجلاً، بعضُهُم أصابَهُم الإغماء خلال الرحلة، وكادوا أن يفقدوا حياتَهُم، كنتُ واحداً منهم، في لحظاتي الأولى في الشاحنةِ، هممتُ بالهبوطِ إلى الأرض، ولكن، هناك ما دفعني للبقاء رغمَ يقيني أنَّ الموت يتربَّصُ بأطراف الشاحنةِ التي اجتازت خطوط التفتيش في الميناء، ثلاثةُ حواجز خلف بعضها عبرنا منها، كنتُ على طرفِ الشاحنةِ، أسمعُ حركةَ الشرطةِ وأحاديثَهُم الجانبية قبلَ أن ندخلَ في مرآبِ السيّارات بقلبِ الباخرةِ الكبيرة، رحلةٌ بَحْريةٌ أخرى، هذه المرّة كانت السفينةُ تحمينا من البحر، الرطوبةُ الخانقةُ والظلامُ المهيمن وأصواتُ المحرّكات الكبيرة للباخرة تقتل الضجيج،

وحدهُ الموت بدأ يتسلّل عقِبَ مرور خمس ساعات في الرحلة، أحدُ العابرين أصابتهُ نوبةُ ربو. كان القرأُ بين الجميع أنَّ مَن يتعب لن يُنقذه أحد، سيواجِهُ قَدَرَهُ المحتوم، اختناقاتٌ داهمتْنا جميعاً، بقيَت آثارُها على حديد الشاحنةِ ربمّا حتّى اليوم، نحن أبناءُ الشاحنةِ وأبناء البحر، تسع عشرة ساعةً في الشاحنةِ المُغلَقةِ تماماً، من أثينا إلى كورفو الإيطالية عبر كومينيتسا اليونانية، كان ذلكَ في الخامس من أكتوبر لعام ٢٠١٤.

في كورفو الإيطالية، فتحَ السائقُ صندوق العدَّةِ في خلفية السيّارة، لنهبطَ واحداً واحداً نحو الأرض، كانت الأرضُ تعني لنا الرحمَ الجديد، شعرتُ بعظامي تتفكَّكُ، وأنا أفردُ قَدَمَيّ قبل أن أختفي مع آخرين في الغابةِ الممتدّةِ على كتفِ الطريقِ الواصلة بين الميناء والمدينة، تلك المدينةُ تعادلُ ستّة كيلومترات أو أكثر بقليل، قطعناها مشياً على الأقدام حتّى وصلنا إلى المحطّةِ الرئيسة للقطارات. كان علينا أن نحجزَ إلى ميلانو، حيثُ المحطّةِ الكبيرة في إيطاليا التي يتوزَّعُ منها العابرون نحو مُدُنِ الشتات، القطارُ يمتدُّ بنا، ونحن مَرميُّون في مقصوراتِهِ خائفينَ من مداهمةِ الشرطةِ للمكان، نحنُ العابرين بطريقةٍ غير شرعية. عادَ بي الشريطُ الذي امتدَّ بين الثاني عشر من أغسطس حتّى السادس من أكتوبر خلال سبعِ ساعاتٍ، هي المسافةُ الزمنية الفاصلةُ بين كورفو وميلانو.

أوراقي البيضاء، أسماء المُهرِّبين، الذين لم يحالفهم الحظّ بالوصول إلى الضفّة الأخرى، فندق طومان باي، مراكزُ الأمنيات، الشرطةُ في كلِّ مكان، جسر الملك حسين، فلسطين، إسرائيل، سورية، الثورة، المقاتلون، مفرداتٌ كثيرةٌ عادت كلها بعد أن ابتلعها البحر.

في ميلانو، بحثتُ عن ذاتي، فلم أجدها، هناكَ أنا عابرٌ أيضاً، افترقَ

الجميعُ، ومضى كلٌّ إلى وجهتِهِ الجديدة، لاشيء يدفعني للانتظار هنا، أزمةٌ قلبيةٌ مفاجئةٌ، أوقعتْني أرضاً، كان لها أن تحضُر هكذا دون استئذان، يومٌ جديدٌ قضيتُهُ في المشفى بعد أن أسعفني شابّان مصريَّان، أوجدهما القَدَرُ بالقربِ منّي في مركزِ المدينة، في ميلانو، لا مفاجأةَ باللسان العربي، كنتُ حينَها أسيرُ بمحاذاةِ الموت قبلَ أن أهرب من المشفى بعد أن سمعتُ الطبيبَ يتحدَّثُ مع الشرطةِ عن وجودِ مهاجرٍ غير شرعي.

أزقةُ ميلانو اليوم تعرفني، وتُدرِكُ أنَّ خطواتي فيها عابرةٌ ككلِّ العابرين، لا أحاولُ أن أتورَّطَ بحبِّ المدينةِ، فهنا لا نتورَّطُ بحبِّ مُدُنٍ، لا تجمعنا معها ذاكرة، الذاكرةُ التي احترقت مع مُدُننا هناك في الشرق، وحيداً أعبرُ بوّابةَ المطار الرئيس في ميلانو بعد أن استخرجتُ هويَّةً مزوَّرةً باسمٍ غريب، عندما تكون مهاجراً غير شرعيّ تعرفُ كيفَ تصلُ لما تريد، فقد انتصرتُ على البحر والبرّ معاً، عندما تفقدُ بيتكَ، بيوت العالم كلُّها تغدو بيتكَ، وعندما تفقدُ وطنكَ، فالطُّرُق كلها مسموحةٌ، كي تحصلَ على أرضٍ جديدة، ناموس العالم وسورية في ميزانٍ واحد، وحينَ خسر العالمُ سورية خسِرَ نفسه، هذه المعادلةُ في ذهني وأنا أعبرُ بوّابةَ مطارِ بروكسل الدولي في الواحدةِ بعد منتصفِ ليل السادس من أكتوبر.

مظاهر الإعياءِ تبدو واضحةً عليَّ، وما إن أرى الشرطةَ حتّى أذهب نحوهُم، الأصواتُ في عقلي الباطن تتمازجُ مع بعضها، فلا أدركُ حقيقةً ما يقول الشرطي بإنكليزيةٍ ركيكة، حُرّيّة، إسقاط النظام، الثورة، المُهرِّب، الشاحنة، الاختناق، البحر، الموج، الجوع، البرد، النار، الأوراق، أصواتٌ كثيرةٌ تعلو قبل أن أفقدَ الوعي تماماً، لأصحو بعد بضع ساعاتٍ في غرفةٍ صغيرةٍ، مكتوب على جدرانِها عبارات عربية، أدركتُ لفوري أنَّ هناك عابرين مرُّوا من هنا قبلي.

الخامسةُ والنصف فجراً يُوقظني الشرطي، ويُرشدني عن إجراءات اللجوء وضرورةِ الذهابِ إلى مبنى "الكومساريات" في محطّة الشمال ببروكسل، لم ينتهِ اليومُ إلا وكنتُ مع آخرين في مخيَّمِ بيرزيت لإيواء اللاجئين.

في مخيّم إيواء اللاجئين في بيرزيت

"أنا في مخيَّم إيواء اللاجئين في بيرزيت"!.

ضربٌ من الجنون، إنَّهُ المستحيل تماماً، ذلكَ الذي لم أتوقَّع حدوثُهُ يوماً حتَّى لو أخبرني به هُدهُد سليمان بأنَّهُ خبرٌ يقين، فما الذي يأتي بي هنا، أنا السوري الخارجُ من رحمِ الشرق حيثُ جذوري هناك، تلكَ الجذورُ التي ضُرِبَت في سورية قبل ولادتي بأشهر، في مدينةٍ اسمها حماه، حيثُ أبصرتُ النور عقِبَ مذبحةٍ، اجتاحت المدينة، فبدأتُ حياتي بالخوفِ من الشوارع المُظلمة والمُضاءة في زواريب المدينة، تلكَ التي وشمَها الرصاصُ الذي داهمَ المدينة بعدَ أن حاصرها الموت، فظلّت أرواحُ الساكنين والمَنفيين والراحلين والقتلى تطوفُ راجلةً وراكبةً وسابحةً بأسماءٍ مُستعارة، يُخفيها أهلُ المدينةِ تحت عباءتها؟

إرباكُ المكان في ذاكرتي رافقني لسنواتٍ طويلة، وها أنا اليوم أخطو خطواتي الأولى في مكانٍ، لم أتوقَّع وصولي إليه يوماً، سياحةً أو عملاً، فبعدَ أن أكَلتْ عمري المنافي وأنا أُكمِلُ عامي الثاني بعد الثلاثين، وصلتُ إلى هنا بعد رحلةٍ مجنونةٍ، رافقني الموت فيها كظلِّي، فكان حارساً للحياة في داخلي، الموتُ كانَ رفيقاً لا يُخطئني رافضاً اصطحابي عبر رحلاتِهِ التي أوقفها للسوريين في الأساليب كلها خلال السنوات الأخيرة، حاملاً ذاكرتي المُرهَقَة بمشاهِد الزنازين وساحات المُعتَقل وشوارع وإنارات وأبنية وروائح المُدُن الكثيرة وغرف الفنادقِ رخيصة الثمن التي عبرتُها في الشرق والغرب،

لم يسحرني مكان، فقد ظللتُ خارجَ إطاراتِهِ كلِّها، إلَّا هنا في مخيَّم بيرزيه الذي يُكتَبُ في الفرنسية بيرزيت، بلفظِ مُقاربٍ لمدينةٍ فلسطينية، تضمُّ جامعةً أكاديمية عريقة. عندما أخبرني الموظَّفُ في مفوضيَّة اللجوء عن خطِّ سيري الذي يبدأ من العاصمة بروكسل انتهاءً بمحطَّة بيرزيت، كانت مَشاهدُ طريق الآلام التي عبرتُها وصولاً إلى هنا تمرُّ حاضرةً، فتَزيد من إطباقِ الحاجب الحاجز على رئتيَّ، إنَّهُ العبث حين حملتُ حقيبتي الصغيرة، بانتظار القطار مُتتبِّعاً خريطةً مرسومةً بدقَّةٍ، سلَّمني إيّاها الموظَّفُ الذي لا يهتمُّ عادةً بقصص العابرين، كنتُ أودُّ لو أصرخ بوجهِ كلِّ مَن قابلتُ: لقد أتيتُ بالبحر، لقد غرق قاربنا، وسبحتُ أربع عشرة ساعةً متواصلة. لقد مات آخرون، وأنقذني الموت من الوقوعِ فيه!، ولكنِّي اكتفيتُ بمُشاهدةِ الطريق عبوراً إلى المحطَّةِ الأخيرة.

قرّرتُ منذ اللحظةِ الأولى لصدمتي ألّا أتعاملَ مع المكان كسائحٍ جاء لالتقاطِ الصوَرِ، لستُ عابراً في رحلةٍ، ستأتي بعد أسبوع، ذاكرتي تُحاوِلُ استنهاضَ نفسها، وأمام ذلكَ أمارِسُ ديكتاتوريّتي عليها قامعاً إيّاها مُعيداً إحساسَها إلى اللحظةِ التي أعيشُها الآن، حيثُ بدأتُ أهبطُ بهدوءِ مَن أيقَنَ أن لا عودة أبداً لكلِّ الأماكنَ التي عبرها يوماً، من ضفَّةٍ إلى أخرى، كنتُ أنتقلُ رفقةَ آخرين، لم أحفظ أسماءَهُم وصولاً إلى سيّارة بيضاءَ، تحملُ شعارَ الصليب الأحمر الدولي، وقفَ أمامها شابٌّ، يحملُ أوراقاً، تتضمّن أسماءَ الواصلين الجُدُد مع حلول الظلام تماماً، حيثُ لم أستطع استكشاف المكان، والسيّارةُ الكبيرةُ تعبُّ الشارعَ كحصانٍ عرَفَ مضاربَ قبيلته.

عشر دقائقَ أو أقلَّ من ذلكَ، كان جسدي يحاول مراراً خلالها التخلُّص من ملوحة البحر ورائحة الغارقين فيه، إلى أن عبرنا بوّابة ما سيُعرَف لاحقاً "الكامب"، شارعٌ طويلٌ، لم أتميَّز جوانبهُ ليلاً، لأقف بعد لحظاتٍ أمام

موظَّفةٍ، حاولتْ باللباقةِ الممكنةِ كلها التخفيفَ من وحشةِ المكان وغربته الأولى، من خلال طرحِ بعض القوانين الأساسية للحياةِ في أرجائه الواسعة، لتقودني بعد ذلكَ إلى غرفةٍ، تشاركتُها مع خمسةِ أشخاصٍ غيري. كانت الليلة الأولى الأشدّ رهبةً ووجعاً، فقد قطعها سيلٌ من الكوابيس المتلاحقة، في غرفةٍ تمتدُّ لستَّةِ أمتار طولاً وخمسةِ عرضاً، توزَّعت بها الأَسِرَّةُ فوق بعضها بعض، لينقسمِ قاطنوها إلى أعراقٍ، لا تتحدَّثُ أبجديّةً واحدة، فكنتُ خلال الوقت المستقطعِ بين كابوسين، أتلصَّصُ على الآخرين، أُراقِبُ هيئاتهم ناظراً إلى جدران هذه الغرفة التي عبرها آخرون قبلي من عشرات السنين، كلُّهُم كان لهم قصصٌ عن القدوم، وأحلامٌ عريضةٌ للمستقبل، من هنا كان مفتاحُ اكتشاف المكان، قرّرتُ أن أتعامل معهُ مجدّداً كعابرٍ، يسعى لأرضيَّةٍ ثابتة، فرُحتُ صباحاً أمشي في شوارعِهِ المتوازية طولاً، الملتفَّةُ في نهايتِها حول سبعةِ أبنية، حملتْ أرقاماً متنوِّعة، بينما كانت هناك في نهايتِهِ أكواخٌ ترامية، تقطنها العائلات.

لم يستغرق الصباحُ طويلاً لأكتشِفَ أنَّ الكامب كانَ مقرّاً لوحداتٍ عسكريَّةٍ قبلَ أن يتحوَّل إلى مركز لإيواء اللاجئين من بقاعِ الأرض كلِّها، ولأنَّ علاقتي مع الحياةِ العسكرية تقومُ على التضادّ والتنافر، زادَ ذلكَ الأمر وحشةَ المكان في داخلي، فكلَّما مررتُ بالقربِ من سارية العَلَم، تخيَّلتُ أولئكَ اللابسين للبدلة العسكرية في الشرق، حيثُ يعيثونَ فساداً ونشراً للموت في فضاءاتِهِ الواسعة، رائحةُ الذُّكُورةِ أزكمتْ أنفي، فتفاصيلُ الجيشِ لا تحتملُ الأنوثة في عقلي الباطن، وفي محاولةِ لبناءِ علاقةٍ مع المكان، ذهبتُ إلى مكتبِ الاستقبال، وطلبتُ دفتراً وقلماً، وشرعتُ بكتابةِ روايةٍ جديدة!.

محاولةٌ لبناءِ مكانٍ جديدٍ على الورق، يضمُّ بين جنباتِهِ الجانب المضيء

من الحمولة الزائدة للذاكرة وأحلامَها الوردية في اتِّصالِها الأوّليّ مع القارَّةِ الأوربية، أرضُ الحُرّيّات، صفحةٌ، اثنتان، خمس، عشرة، لأتوقَّفَ نهائياً بعد أن اكتشفتُ بمحضِ المصادفة المطلقة أنَّ هذا المكان كان أيضاً مقرّاً للنازيَّةِ خلال الهولوكست، الهولوكوست الذي حمَلْنا وِزرَهُ رغمَ أن لا علاقةَ مُباشرةً لنا به، رائحةُ شواء الأجساد تُسيطر على المكان من جديد، صرخاتُ الضعفاء المكلومين، أطفالٌ، رجالٌ، نساءٌ، شيوخ، الكذبةُ التاريخية للهولوكست، هل حدَث؟ لم يحدُث. أسألُ الترابَ، النصب التذكاري للمحرقة، أنظُرُ في وجوهِ الموجودين، لا أحد يعلم، لا أحد يهتمّ، وحدي كنتُ أحاولُ اكتشافَ التفاصيل كلها التي يكمُنُ فيها الشيطان، التفاصيل لم تكن تعني غيري، تلك التفاصيل التي ستتوهُ لاحقاً في زحمةِ المكان وتراخي الزمان، الزمان مُكوِّنٌ آخرَ للمكان، يمرُّ هنا ثقيلاً بطيئاً من المُمكِنِ إمساكُهُ في وجوهِ العابرين، وفي قصص الحبِّ الرخوة والعداواتُ التي لا سبَبَ لها، إنَّها اختناقات المكان وتضاؤل الزمان، وحدَها الثرثرةُ تبقى في موجات العدد الهائلِ للقابعين في هذا المكان.

على عجلٍ، تُبنى الصداقات بين الأشجار العالية المحيطةِ بالمكان، وسريعاً يبدأ البوحُ عن أحلامِ المستقبل والشوقِ للقيا الغائبين. كنتُ كلّ صباحٍ أنظر إلى المرآةِ، أسألُ نفسي عن حالِها، أُلاحظُ بعض الشعرات البيضاء التي بدأت تشتعلُ في رأسي، وزني أيضاً انخفضَ إلى النصف، أنا جزءٌ من المكان الآن، مهما حاولتُ التجرُّدَ منهُ، وافتراضُ كونه مرحلةً عابرةً سيليها ما أُريد، في الواقعِ، لم يكن كذلكَ، فقد أحرقني بقايا الجمرُ في أفران الهولوكست الضائعة.

الأيّام تتشابَهُ فيما بينها، في تلك القطعة الجغرافية التي تقعُ في مدينة ليبج بين مركزَي "أونص" و"ورام"، طوابيرُ الطعامِ في الوجباتِ الثلاث،

الثقافاتُ الاجتماعية وعاداتُها المختلفة بين شعوب الأرض الطارئة على هذه الأرض، اللهجات والألسنُ التي ستُحاولُ مراراً حفظَ كلماتِ التحيَّةِ فيها، وستُخفق مراراً، لأنَّ الأرضَ مهزوزة غير ثابتة ومستقرّة، ستحاولُ أيضاً أن تُغيِّرَ من عاداتك، وستُخفق، مثلاً ستُجرِّب أن تتكلَّم بصوتٍ منخفِض، ولن تضبط نفسكَ، ستُحاولُ أن تضحكَ بطريقةِ الابتسام، ولن تنجح، جغرافية الفكر في المكان ستفرِضُ نفسها عليكَ، ولن تستطيع إخراجَكَ من جلدكَ، مهما حاولتَ التصنُّع، فأنت طارئٌ هنا، لا أكثر ولا أقلّ.

العلاقةُ مع القائمين على المكان أيضاً جزءٌ من الجغرافية، تلكَ الرحلةُ التي تبدأ بترتيب الأوراق والمقابلات والفحص الطِّبّيّ وصولاً إلى محاولاتِكَ بناءَ علاقاتٍ صحِّيَّةٍ، تمتدُّ طويلاً مع العاملين، فتصطدِم بقوانين صارمةٍ، تُحذِّرهُم من لقائكَ خارجَ المكان الذي لا يراكَ إلا تفصيلاً عابراً فيه، بينما ترى نفسكَ حين يسكن الليل طريداً وحيداً دون صداقاتٍ، لتناجي الراحلين البعيدين، وتسأل نفسكَ كعربيٍّ مراراً "لماذا أبوابُ مخيَّم إيواء اللاجئين في بيرزيت أقربُ لي من أبواب مكَّةَ المكرَّمة"، لن تجدَ جواباً واحداً، وإلَّا فماذا تعني العروبة؟.

مراراً وأنتَ تقطَعُ الطريقَ ذاهباً وعائداً إلى العاصمة بروكسل لإنجاز الأوراق المطلوبة للاعترافِ بكَ كجزءٍ من المكان، ستسأل نفسَك:"لو قالَ لكَ أحدُهُم منذ خمس سنواتٍ أنَّكَ ستكون هنا في مخيّمٍ لإيواء اللاجئين، لرددتَ عليه فوراً: ما هذا الجنون كلُّه؟!" ستبتسمُ وتُخبِر نفسَكَ أنَّ الجنونَ غدا حقيقةً، وصار واقعاً، وعبَرتَ ككلِّ العابرين من ذلكَ المكان الذي مرَّ عليهِ آخرون، وتعاقبَ عليهِ اللاجئون.

لن تكون انتقائياً في ذاكرتِكَ مع ذلك المكان، مثلي تماماً، ستفتحُ الذاكرةَ على مصراعيها، لتُشبِعها بالصور كلها، وحين سيمرُّ بعد ذلكَ ذِكرُ

الكامب، ستأتي المشاهدُ دفعةً واحدةً كالصلوات التي لا يُمكنُ تأديتُها بنقصان، فكيفَ لي أن أنسى أنيِّ استقبلتُ ابني حمزة في المنفى، بينما وُلِدَ هوَ في منفى آخر بعيداً هناك، حيثُ حمَّلتُهُ وجعَ غيابي الأوَّل حين أبصرَ النور؟! كيفَ لي أن أنسى أنّ الكامب كان شاهداً على فصول روايتي الأخيرة "طريق الآلام"؟! كيفَ لي أن أختزلَ تلك التفاصيل كلّها، وأحلُمَ بعودةٍ، والذينَ أُحبّهم كلهم ماتوا في الحرب؟!

لم أُخبِركُم أيضاً أنيِّ وصلتُ الكامب "مخيَّم إيواء اللاجئين في بيزيت" في السادس من تشرين، أكتوبر لعام ٢٠١٤م، السادسُ من تشرين الذي ارتبطَ في عقلي الباطن بحربِ تشرين على الجبهةِ السورية والمصرية، والسادسُ من تشرين هوَ يوم زواجي، وقد صادَفَ حينَ وصلتُ إلى بيرزيت يومَ الوقوفِ في جبل عرفة، حيثُ يؤدِّي المسلمون فريضةَ الحجِّ في مكّة!!.

وصلتُ إلى المخيَّم بحقيبةٍ صغيرةٍ، اشتريتُها من بروكسل، لم أضع فيها شيئاً سوى ملفّ اللجوء الذي حملَ رَقْمي، واسمي الكامل، وورقةً، فيها صورتي الشخصية، وبيانات أوّليّة، لأكون رَقْماً في متتالية، عبرَت، وستظلُّ تعبرُ، ذلكَ المكان الذي شهدَ الهولوكست على أرضِه، ويشهَدُ نتائجَ الهولوكست الذي يحدُثُ على أرضِ آخرين، قناعةٌ واحدةٌ نقلتُها معي في الشواطئ كلها التي غزوتُها، قناعةٌ واحدةٌ ظلَّت عالقةً فوق ملوحةِ البحر هي أنَّ الأوطان كلها أرضُنا بعدَ أن ضاعَت سورية.

مكتبة

تابعنا على تيليجرام اضغط هنا

تابعنا على فيسبوك اضغط هنا

فهرس المحتويات

استهلال ٥
طائرة إلى إسطنبول ١١
ذلك اليوم في أمّ قصر ١٥
في فضاء إسطنبول ٣٣
المدينة المقدّسة ٣٩
احتلال بغداد ٥٣
إسطنبول ودمشق ٥٧
في معتقل بوكا ٦١
على شاطيء بحر إيجة ٨٥
من أثينا إلى بروكسل ٩٣
في مخيّم إيواء اللاجئين في بيرزيت ٩٧

أزقةُ ميلانو اليوم تعرفني، وتُدرِكُ أنَّ خطواتي فيها عابرةٌ ككلّ العابرين، لا أحاولُ أن أتورَّطَ بحبِّ المدينةِ، فهنا لا نتورَّطُ بحبِّ مُدُنٍ، لا تجمعنا معها ذاكرة، الذاكرةُ التي احترقت مع مُدُننا هناك في الشرق، وحيداً أعبرُ بوّابةَ المطار الرئيس في ميلانو بعد أن استخرجتُ هويَّةً مزوَّرةً باسمِ غريب، عندما تكون مهاجراً غير شرعيّ تعرفُ كيفَ تصلُ لما تريد، فقد انتصرتُ على البحر والبرّ معاً، عندما تفقدُ بيتكَ، بيوت العالم كلُّها تغدو بيتكَ، وعندما تفقدُ وطنكَ، فالطُّرُق كلها مسموحةٌ، كي تحصّلَ على أرضٍ جديدة، ناموس العالم وسورية في ميزانٍ واحد، وحينَ خسر العالمُ سورية خسرَ نفسه، هذه المعادلةُ في ذهني وأنا أعبرُ بوّابةَ مطارِ بروكسل الدولي في الواحدةِ بعد منتصفِ ليل السادس من أكتوبر.

ISBN 978-88-99687-87-8

منشورات المتوسط

دار السويدي للنشر والتوزيع